حيـــن تـلاشـــى الـــطريـق

الـــــمـقدمــة:

حين تلاشى الطريق، لم يكن مجرد نهاية لمسار اخترته، بل كان انطفاءً لحلم ظلّ يرافقني منذ خطواتي الأولى. كان ذلك الحلم بالنسبة لي حياةً كاملة، أتنفّسه مع كل صباح، وأراه يكبر معي كلما قاومت عثرات الأيام. لم أكن أؤمن بالمستحيل، فقد واجهت التحديات بقلبي قبل عقلي، وكنت أظن أن الصبر والمثابرة وحدهما قادران على أن يفتحا لي أبواب الغد المشرق.

لكنّ ما لم أتوقعه أن تنهار الجدران من الداخل، أن يتلاشى السند الذي وثقت به، وأن يخونني الحلم من حيث ظننت أنه الأمان. لم يبقَ معي أحد، حتى أقرب الأحباب الذين وعدوني بالبقاء، غادروا بصمت، وكأن وجودي أو غيابي لم يكن يعني لهم شيئاً. تركوني أمام أوجاعي، وحيداً في مواجهة واقعٍ لم أختره.

هذا الكتاب ليس مجرد كلمات تُسطر على الورق، بل هو بوح روحٍ أرهقها البحث عن معنى الاستمرار بعد انكسار الحلم، وهو اعتراف جريء بأننا أحياناً نسقط رغم قوتنا، وننكسر رغم صلابتنا، ونشعر بالغربة بين وجوه كنا نظنها الوطن.

أكتب هذه الصفحات لأني أدركت أن الحلم حين يضيع لا يذهب هباءً، بل يترك فينا أثراً لا يُمحى، وجرحاً يُشكّلنا من جديد. قد يكون الطريق قد تلاشى، لكن الذاكرة باقية، والوجع شاهد، والكلمات وحدها القادرة على أن تروي حكايتي التي لم تكتمل

الإهـــــداء:

إلى الذين لم يبقوا بجانبي، رغم أنني كنتُ لهم عوناً في أشد حاجاتهم

إلى من نسوني يوم انطفأ حلمي، ولم يلتفتوا إلى حالي بعد أن خسرت ما كان أغلى عندي

أهديكم صمتي وكسرة قلبي، وأنا أرى أصدقائي يقفون على منصة المسرح، يحملون شهاداتهم بابتسامة الفخر، بينما أقف بعيداً أنظر إليهم والحسرة تملأني

ليس ذنب صديقاتي ما أنا فيه، ولا في قلبي غيرة ولا حسد، بل ألمٌ صادق أنني لم أكن بينهم، أن مكاني ظلّ فارغاً، وأن حلمي الذي قاتلت من أجله قد تلاشى قبل أن أصل إليهم.

الـــفـــــــهرس:

المقدمة..... 2

الإهداء.....3

الفهرس..... 4

الفصل الأول.....8

الفصل الثاني..... 10

الفصل الثالث..... 12

الفصل الرابع..... 14

الفصل الخامس..... 16

الفصل السادس..... 18

الفصل السابع..... 22

الفصل الثامن..... 24

الفصل التاسع..... 25

الفصل العاشر..... 26

الفصل الحادي عشر.....28

الفصل الثاني عشر.....29

الفصل الثالث عشر.....30

الفصل الرابع عشر.....31
الفصل الخامس عشر.....32
الفصل السادس عشر.....34
الفصل السابع عشر..... 36
الفصل الثامن عشر.....38
الفصل التاسع عشر.....39
الفصل العشرون 41
الفصل الحادي وعشرون.....43
الفصل الثاني وعشرون.....45
الفصل الثالث وعشرون.....47
الفصل الرابع وعشرون.....50
الفصل الخامس وعشرون.....52
الفصل السادس وعشرون.....54
الفصل السابع وعشرون..... 56
الفصل الثامن وعشرون.....57
الفصل التاسع وعشرون.....58
الفصل أحدى وثلاثون.....61
الفصل الآخير..... 63
الخاتمة..... 65

أَنا الفَتاةُ الَّتي بَدَأَتْ مَسيرَتَها الدِّراسِيَّةَ في مَدارِسَ فَخْمَةٍ، حَيْثُ كُلُّ شَيْءٍ كانَ يُوحِي بِالرِّفْعَةِ وَالنَّجاحِ. كانَتِ الصُّفُوفُ واسِعَةً تَمْلَؤُها الأَلْوانُ، وَالمَقاعِدُ مُرِيحَةً كَأَنَّها وُجِدَتْ لِتَحْتَضِنَ أَحْلامَ الطُّفُولَةِ. كُنْتُ الطِّفْلَةَ اللَّطِيفَةَ، المَحْبُوبَةَ مِنْ مُعَلِّماتِي وَزَميلاتِي، تِلْكَ الَّتي لا تُفارِقُ يَدَ أُمِّها، وَتَعودُ كُلَّ يَوْمٍ تَحْمِلُ في قَلْبِها حِكايَةً صَغِيرَةً مَليئَةً بِالدِّفْءِ.

كُنْتُ أُحِبُّ الدِّراسَةَ، وَأَجِدُ فِيها مُتْعَتِي الخَاصَّةَ. كُنْتُ أَرى نَفْسِي مُخْتَلِفَةً، طَمُوحَةً، أَرْكُضُ بِخُطُواتٍ صَغِيرَةٍ نَحْوَ أَحْلامٍ كَبِيرَةٍ. كانَتْ دَرَجاتِي عالِيَةً، وَاسْمِي يَتَرَدَّدُ في قَوائِمِ الأَوائِلِ عامًا بَعْدَ عامٍ. أَعْتَلِي المَسْرَحَ بِابْتِسامَةٍ فَخُورَةٍ لِأَتَسَلَّمَ شَهاداتِ التَّقْدِيرِ وَالهَدايا، فَأَشْعُرَ أَنَّ العالَمَ كُلَّهُ يُصَفِّقُ لِي. كانَتْ عَيْنايَ تَلْمَعانِ، وَقَلْبِي يَخْفِقُ بِحُبِّ الإِنْجازِ، وَأَحْلامِي تَكْبُرُ مَعِي كَظِلٍّ لا يُفارِقُنِي.

كانَتْ طُفُولَتِي تَبْدو كَقِصَّةٍ مِثَالِيَّةٍ، خالِيَةً مِنَ العَثَراتِ، وَكَأَنَّ الطَّرِيقَ الَّذي أَسِيرُ فِيهِ مَفْرُوشٌ بِالزُّهُورِ. لَمْ أَكُنْ أَتَخَيَّلُ يَوْمًا أَنَّ لِلْحَياةِ وُجُوهًا أُخْرَى، وَأَنَّ الزَّمَنَ يَحْمِلُ بَيْنَ طَيّاتِهِ امْتِحاناتٍ لا تُقاسُ بِعَلاماتٍ عَلى وَرَقٍ.

لَقَدْ كُنْتُ أَعِيشُ نَشْوَةَ البِداياتِ، دُونَ أَنْ أُدْرِكَ أَنَّ الطُّرُقَ المُضِيئَةَ قَدْ تَعْتِمُ فَجْأَةً، وَأَنَّ الصَّوْتَ المَليءَ بِالضَّحَكاتِ قَدْ يَخْتَنِقَ ذاتَ يَوْمٍ بِالصَّمْتِ. كُنْتُ في سِباقٍ مَعَ الأَحْلامِ، وَلَمْ أَعْلَمْ أَنَّ الطَّرِيقَ قَدْ يَتَلاشَى فَجْأَةً، لِيَتْرُكَنِي أَبْحَثُ عَنْ نَفْسِي بَيْنَ غُبارِ الأَيّامِ.

مَرَّتِ السَّنَواتُ سَرِيعًا، وَكَبِرْتُ، وَكَبِرَتْ مَعِي المَسْؤُولِيّاتُ. بَدَأْتُ أَرى أَنَّ الطَّرِيقَ لَمْ يَكُنْ دائِمًا مُسْتَقِيمًا، وَأَنَّ الانْحِداراتِ تَظْهَرُ فَجْأَةً لِتُرْبِكَنِي. لَمْ يَعُدِ النَّجاحُ سَهْلًا كَما كانَ؛ وَلَمْ تَعُدْ ضَحْكَتِي بَرِيئَةً كَما اعْتادَتْ. شَعَرْتُ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ أَنَّ الأَبْوابَ قَدْ تُغْلَقُ في وَجْهِي، وَأَنَّ الثِّقَةَ الَّتي كُنْتُ أَعِيشُ عَلَيْها بَدَأَتْ تَتَصَدَّعُ شَيْئًا فَشَيْئًا.

كُنْتُ أَبْحَثُ عَنْ نَفْسِي في دَفاتِرِ المَدْرَسَةِ، وَفي عُيُونِ المُعَلِّمِينَ، وَفي صَداقاتٍ لَمْ يُكْتَبْ لَها البَقاءُ. لَكِنْ شَيْئًا داخِلِيًّا تَغَيَّرَ، كَأَنَّ مَلامِحَ الطَّرِيقِ بَدَأَتْ تَتَلاشَى أَمامِي، وَصِرْتُ أُضِيعُ بَيْنَ التَّوَقُّعاتِ الَّتي يَضَعُها الآخَرُونَ، وَبَيْنَ أَحْلامِي الَّتي كانَتْ تَتَساقَطُ واحِدَةً تِلْوَ الأُخْرَى.

هُنا، أَدْرَكْتُ أَنَّ الحِكايَةَ لَمْ تَعُدْ تُشْبِهُ بِدايَتَها، وَأَنَّ الطِّفْلَةَ المُشْرِقَةَ صارَتْ تَسِيرُ في مَمَرّاتٍ مُعْتِمَةٍ تَبْحَثُ عَنْ بَصِيصِ نُورٍ.

الفصل الأول: حين تبدلت الجدران وتلاشت الملامح

كَبِرْتُ، وَأَنا أَظُنُّ أَنَّ عالَمِي سَيَبْقَى كَما هُوَ؛ أَنَّ بَيْتَنا سَيَظَلُّ شاهِدًا عَلى ضَحَكاتِي، وَأَنَّ مَدْرَسَتِي المُفَضَّلَةَ سَتُرافِقُنِي حَتّى نِهايَةِ مَشْوارِي. لَكِنْ ما لَمْ أَضَعْهُ في حِساباتِي هُوَ أَنَّ الأَقْدارَ قَدْ تُغَيِّرُنا وَنَحْنُ ما زِلْنا في مُنْتَصَفِ الحُلْمِ.

انْتَقَلْنا مِنْ مَنْزِلِنا الأَوَّلِ، ذلِكَ الَّذي كُنْتُ أَحْتَفِظُ بِزَواياهُ كَما أَحْتَفِظُ بِسُطُورِ كُتُبِي. كانَ البَيْتُ، بِالنِّسْبَةِ لِي، أَكْثَرَ مِنْ جُدْرانٍ وَسَقْفٍ؛ كانَ ذاكِرَةَ طُفُولَتِي، وَدِفْءَ أَحْلامِي، وَأَمانَ الأُمِّ الَّتي كُنْتُ أَلْتَصِقُ بِها كُلَّ صَباحٍ. لَمْ يَكُنِ الانْتِقالُ مُجَرَّدَ تَغْيِيرٍ في المَكانِ، بَلْ كانَ اقْتِلاعًا لِجُذُورٍ صَغِيرَةٍ ما زالَتْ في بِدايَةِ النُّمُوِّ.

وَمَعَ الرَّحِيلِ تَبَدَّلَتْ بِيئَتِي. غادَرْتُ مَدْرَسَتِي الَّتي كانَتْ عالَمِي الثّانِي، تِلْكَ الَّتي كُنْتُ أَسْتَيْقِظُ إِلَيْها بِلَهْفَةٍ، وَأَعودُ مِنْها مُحَمَّلَةً بِالفَخْرِ وَالإِنْجازِ. افْتَرَقْتُ عَنْ صُفُوفِي، عَنْ صَدِيقَاتِي اللّاتِي شَكَّلْنَ نِصْفَ طُفُولَتِي، وَعَنْ مُعَلِّماتِي اللَّواتِي كُنَّ كَالأُمَّهاتِ. وَجَدْتُ نَفْسِي في مَدْرَسَةٍ جَديدَةٍ، غَريبَةٍ عَنِّي، بِجُدْرانٍ بارِدَةٍ وَمَمَرّاتٍ لا تَحْمِلُ ذِكْرَياتِي.

في البِدايَةِ حاوَلْتُ أَنْ أُقْنِعَ نَفْسِي أَنَّ الأَمْرَ مُؤَقَّتٌ، وَأَنَّنِي سَأَتَأَقْلَمُ في هَذا المَكانِ. حَياةٌ جَديدَةٌ رُبَّما، لَكِنْ داخِلِي كانَ يَرْفُضُ التَّكَيُّفَ. كُنْتُ أَرى نَفْسِي تَصْرُخُ بِالحَنِينِ، تَشْتاقُ لِلأَلْوانِ الَّتي كانَتْ تُزَيِّنُ مَقاعِدِي، وَلِتِلْكَ الرّاحَةِ الَّتي شارَكْتُها مَعَ صَدِيقَاتِي، وَلِصَوْتِ اسْمِي وَهُوَ يُنادَى عَلى مَنْصَّةِ التَّكْرِيمِ.

كانَ الانْتِقالُ بِدايَةَ تَصَدُّعٍ لَمْ أَفْهَمْهُ حينَها. لَمْ تَعُدْ دَرَجاتِي كَما كانَتْ، وَلَمْ أَعُدْ أَشْعُرُ بِالحَماسِ ذاتَهُ. كُنْتُ أَضْحَكُ في وُجُوهِ مَنْ حَوْلِي، لَكِنْ قَلْبِي كانَ عالِقًا مَعَ أَوْقاتِ اللَّوْنِ الأَزْرَقِ الَّتي تَرَكْتُها خَلْفِي. كُنْتُ أَبْدُو قَوِيَّةً مِنَ الخارِجِ، لَكِنْ داخِلِي كانَ غَرِيبَةً تُحاوِلُ أَنْ تَجِدَ مَكانًا لَها في خَرِيطَةٍ لا تَعْرِفُ مَعالِمَها.

الفصل الثاني: ملاك على هيئة صديقة

كُنْتُ في الصَّفِّ الرّابِعِ حينَ انْتَقَلْتُ إِلى المَدرَسَةِ الجَديدَةِ، وَما زِلْتُ صَغيرَةً عَلى تَحَمُّلِ كُلِّ ذلِكَ التَّغْيِيرِ. وَكانَ العُمُرُ لا يُسْعِفُنِي لأَسْتَوْعِبَ بَعْدُ كَيْفَ تَبَدَّلَ الدُّنْيا فَجْأَةً. كُنْتُ أَتَنَقَّلُ بَيْنَ المَمَرّاتِ كَغَريبَةٍ، أُراقِبُ الوُجوهَ الَّتي لا أَعْرِفُها، وَأَجْلِسُ عَلى المَقاعِدِ الَّتي لا تَحْمِلُ دِفْءَ ذِكْرَياتِي. كانَ كُلُّ شَيْءٍ بارِدًا، حَتّى ضِحْكَتِي لَمْ تَعُدْ كَما كانَتْ.

وَفي خِضَمِّ تِلْكَ الوَحْدَةِ، ظَهَرَتْ في حَياتِي صَدِيقَةٌ تُشْبِهُ المَلاكَ. لَمْ تَكُنْ مُجَرَّدَ زَمِيلَةٍ عابِرَةٍ، بَلْ كانَتْ يَدًا تَمْتَدُّ لِتُنْقِذَنِي في مُنْتَصَفِ الغُرْبَةِ. ابْتِسامَتُها الصّافِيَةُ، كَلَمَساتِها، كانَتْ كَفِيلَةً بِأَنْ تَزْرَعَ في داخِلِي الطُّمَأْنِينَةَ. وَصَوْتُها الهَادِئُ يَبُثُّ بِي داخِلِي طُمَأْنِينَةً افْتَقَدْتُها مُنْذُ انْتَقَلْتُ.

كانَتْ تَسْمَعُنِي إِنْ بُحْتُ، وَتُصْغِي كَأَنَّها تَعْرِفُ صَمْتِي قَبْلَ كَلِماتِي. مَعَها شَعَرْتُ لأَوَّلِ مَرَّةٍ أَنَّ المَدرَسَةَ الجَديدَةَ لَمْ تَعُدْ سِجْنًا بارِدًا، بَلْ مَكانًا يُمْكِنُنِي أَنْ أَجِدَ فِيهِ بُقْعَةَ دِفْءٍ صَغِيرَةً.

صِرْنا نَتَشارَكُ الدَّفاتِرَ، وَالأَلْعابَ في الاسْتِراحَةِ، وَالقِصَصَ الصَّغِيرَةَ الَّتي لا يَعْرِفُها أَحَدٌ سِوانا. كُنْتُ أَشْعُرُ وَكَأَنَّ اللهَ أَرْسَلَها لِي لِتُعَوِّضَنِي عَنْ كُلِّ ما فَقَدْتُهُ، عَنْ صَدِيقَاتِي القُدامى، عَنْ بَيْتِي الأَوَّلِ، عَنْ مَدْرَسَتِي الَّتي أَحْبَبْتُها. كانَتِ المَلاكَ الَّتي انْتَشَلَتْنِي مِنْ شُعُورِ الغُرْبَةِ، وَجَعَلَتْنِي أُؤْمِنُ أَنَّ القَلْبَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَجَذَّرَ مِنْ جَدِيدٍ وَلَوْ في أَرْضٍ جَدِيدَةٍ.

لَكِنْ، وَعَلى الرَّغْمِ مِنْ دِفْءِ صَداقَتِها، كانَ داخِلِي ما زالَ يَتَأَرْجَحُ بَيْنَ الأَمْسِ وَاليَوْمِ. كُنْتُ أَخْطُو خُطُواتٍ إِلى الأَمامِ، لَكِنَّنِي حينَ أَعودُ إِلى نَفْسِي، أَكْتَشِفُ أَنَّ الحَنِينَ إِلى الماضي لَمْ يُغادِرْنِي، وَأَنَّ الطَّرِيقَ الَّذي بَدَأَ يَتَلاشَى ما زالَ يُخَبِّئُنِي بِظِلالِهِ القاتِمِ.

الفصل الثالث: إصرار طفلة

مَعَ مُرورِ الأَيّامِ، بَدَأْتُ أَعْتادُ بَعْضَ الشَّيْءِ عَلى مَلامِحِ المَدرَسَةِ الجَديدَةِ، لَكِنْ شَيْئًا داخِلِي كانَ يَرْفُضُ الاسْتِسْلامَ. كانَ أَكْثَرَ ما يُؤْلِمُنِي أَنَّ المُعَلِّماتِ في هذِهِ المَدرَسَةِ لَمْ يُشْبِهْنَ مُعَلِّماتِي القُدامى في مَدرَسَتِي الأُولَى؛ لَمْ يَعْرِفْنَنِي جَيِّدًا، لَمْ يُحِطْنَنِي بِالحُبِّ وَالتَّشْجِيعِ، وَلَمْ يَبْتَسِمْنَ عِنْدَ كُلِّ إِنْجازٍ صَغِيرٍ. أَمّا هُنا، فَكُلُّ شَيْءٍ مُخْتَلِفٌ: وُجوهٌ جادَّةٌ، كَلِماتٌ مُقْتَضَبَةٌ، وَقَسْوَةٌ لَمْ أَعْهَدْها مِنْ قَبْلُ.

في البِدايَةِ شَعَرْتُ أَنَّنِي لَنْ أَسْتَطِيعَ أَنْ أَجِدَ لِنَفْسِي مَكانًا بَيْنَهُنَّ، لَكِنْ كانَ داخِلِي إِصْرارٌ خَفِيٌّ يَرْفُضُ أَنْ يَنْطَفِئَ. لَمْ يَكُنْ عَلَيَّ أَنْ أَبْحَثَ عَمَّنْ يَفْهَمُنِي بَيْنَ النّاسِ، بَلْ أَنْ أُثْبِتَ لَهُنَّ أَنَّنِي طِفْلَةٌ مُخْتَلِفَةٌ، أَمْلِكُ القُدْرَةَ عَلى التَّكَيُّفِ تَمامًا لِحَياةٍ جَديدَةٍ، وَأَنَّ الطَّريقَ إِلى النَّجاحِ لا يَحْتاجُ إِلّا أَنْ يَكُونَ واضِحًا دائِمًا.

بَدَأْتُ أَدْرُسُ بِإِصْرارٍ أَكْبَرَ، أُثْبِتُ لَهُنَّ أَنَّنِي قادِرَةٌ، أَنَّنِي لَسْتُ مُجَرَّدَ فَتاةٍ جَديدَةٍ في الصَّفِّ الرّابِعِ تَبْحَثُ عَنْ مَقْعَدٍ. كُنْتُ أَكْتُبُ واجِباتِي بِعِنَايَةٍ، وَأُجيبُ عَلى أَسْئِلَتِهِنَّ بِثِقَةٍ، حَتّى وَإِنْ كانَتْ

نَبَراتُهُنَّ قاسِيَةً شَيْئًا فَشَيْئًا، بَدَأْتُ أَنالُ تَقْديرَهُنَّ، وَبَدَأْتُ أَرى نَظَراتِ الإِعْجابِ في أَعْيُنِهِنَّ.

كُنْتُ أَعودُ إِلى البَيْتِ مُنْهَكَةً، لَكِنَّنِي أَضَعُ رَأْسِي عَلى وِسادَتِي وَأَبْتَسِمُ؛ لأَنَّنِي لَمْ أَتَنازَلْ عَنْ حَقِّي في التَّمَيُّزِ. كُنْتُ أَعْرِفُ أَنَّ طَرِيقِي لَنْ يَكُونَ مَفْروشًا بِالوُرودِ كَما كانَ في البِدايَةِ، لَكِنَّنِي أَدْرَكْتُ أَيْضًا أَنَّ الإِصْرارَ يَصْنَعُ الزُّهورَ حَتّى في أَصْعَبِ الطُّرُقِ.

وَرَغْمَ صِغَرِ سِنِّي، كانَ داخِلِي صَوْتٌ يَهْمِسُ:

"لَنْ تَتَوَقَّفِي... لأَنَّ الطَّريقَ أَمامَكِ، وَإِنْ تَلاشَى يُمكِنُكَ أَنْ تَرْسُمِيهِ مِنْ جَديدٍ."

الفصل الرابع: اكتمال البدايات

كانَ الصَّفُّ الرّابِعُ هُوَ الأَصْعَبَ في رِحلَتي، مَحَطَّةً انتِقالِيَّةً حَمَلتْ مَعَها وَجْعَ التَّغْيِيرِ ونَقْلَ الغُرْبَةِ، لَكِنَّها أَيْضًا صَنَعَتْ في داخِلي صَلابَةً لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ أَنَّني أَمْلِكُها. في البِدايَةِ كُنْتُ كَالغَرِيبَةِ بَيْنَ الجُدْرانِ، أَبْحَثُ عَنْ مَلامِحَ مَأْلوفَةٍ فَلا أَجِدُ، لَكِنْ مَعَ مُرورِ الأَيّامِ تَغَيَّرَ المَشهَدُ شَيئًا فَشَيئًا.

تَأَقْلَمْتُ مَعَ مُعَلِّماتِي، وَمَعَ أَنَّني لَمْ أَجِدْ مِثْلَ مُعَلِّمَتَيَّ القَدِيمَتَيْنِ في كُلِّ شَيءٍ، إِلّا أَنَّني اكْتَشَفْتُ في صَدْرَيْهِمَا قُلُوبًا لَطِيفَةً تَبْذُلُ الجُهْدَ في تَطْبِيبِي. كُنْتُ أَعُودُ مِنَ المَدْرَسَةِ أَحْمِلُ مَعِي إِنْسانِيَّةً مِنَ الرِّضا في أَعْيُنٍ، وَكُلُّها شَهاداتٌ صامِتَةٌ تَقُولُ لي: "لَقَدْ أَثْبَتْتِ جَدارَتَكِ."

لَمْ تَكُنْ رِحلَتِي سَهْلَةً، لَكِنَّني تَعَلَّمْتُ كَيْفَ أُقاتِلُ أَثْبُتُ وَسْطَ بِيئَةٍ جَديدَةٍ. كُنْتُ أَجْلِسُ عَلى مَقْعَدِي بِجِدٍّ وَحِرْصٍ، وَأَرْفَعُ يَدِي في الصَّفِّ بِلا خَوْفٍ، وَأَقِفُ شامِخَةً أَمامَ الامْتِحاناتِ كَأَنَّني أُخاضُ مَعْرَكَةً أَعْلَمُ أَنَّني سَأَخْرُجُ مِنْها مُنْتَصِرَةً.

وَسْطَ كُلِّ ذَلِكَ، كانَتْ هُناكَ يَدٌ لا تُفارِقُني... يَدُ صَديقَتِي العَزِيزَةِ الَّتي صارَتْ جُزْءًا مِنْ يَوْمِي، سَنَدًا يُخَفِّفُ عَنِّي قَسْوَةَ الغُرْبَةِ، وَيُذَكِّرُنِي أَنَّنِي لَسْتُ وَحِيدَةً. كانَتْ تَنْبُضُ بِجانِبِي في أَوْقاتِ ضَعْفِي، وَتَضْحَكُ مَعِي حِينَ يَثْقُلُ الجَوُّ بالجِدِّيَّةِ، كَأَنَّها جِسْرٌ مَمْدُودٌ بَيْنَ عالَمِي القَدِيمِ وَالجَديدِ.

وَهكَذا اكْتَشَفْتُ أَصْعَبَ مَرْحَلَةٍ. خَرَجْتُ مِنَ الصَّفِّ الرّابِعِ أَكْثَرَ وُعْيًا، وَأَكْثَرَ إِصْرارًا. أَدْرَكْتُ أَنَّ التَّغْيِيرَ مَهْما كانَ مُوجِعًا يُمكِنُ أَنْ يُصْبِحَ بِدايَةً جَدِيدَةً، وَأَنَّ الغَرْسَ الصَّغِيرَ الَّذِي يُنْقَلُ مِنْ تُرْبَةٍ إِلى أُخْرَى، يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْموَ مِنْ جَدِيدٍ إِذا شُبِعَ بِالحَياةِ.

الفصل الخامس: بداية مراهقة وترحيل جديد

ما إنْ شَعَرْتُ أنَّني تَجاوَزْتُ أَصعَبَ المَراحِلِ، وَأَنّني وَجَدتُ لِنَفسي مَكانًا في المَدرَسَةِ الجَديدَةِ، حتّى جَاءَ قَرارٌ آخَرُ قَلَبَ مَوازينَ حَياتي مَرَّةً ثانِيَةً. كانَتِ المَسافَةُ بَعيدَةً عَلى مَنزِلِنا الجَديدِ، وَبَدَأَتِ المَشَقَّةُ تَزدادُ يَوْمًا بَعدَ يَومٍ، حتّى تَقَرَّرَ نَقلي إِلى مَدرَسَةٍ أَقرَبَ.

حينَ سَمِعْتُ الخَبَرَ، لَم يَكُن يُؤلِمُني تَغْييرُ المَكانِ بِقَدْرِ ما كانَ يُمَزِّقُني فِراقُ صَديقَتي، تِلكَ الَّتي كانَت كَالمَلاكِ بِجانِبي، سَنَدي في وَحدَتي، وَصارَت جُزءًا مِن تَفاصيلِ يَومي، أَقرَبَ مِن الأُختِ، وأَحَنَّ مِن الرَّفيقَةِ. كَيفَ يُمكِنُ أَنْ أَترُكها بَعدَ أَنْ تَعَلَّقَ قَلبي بِها؟ كَيفَ يُمكِنُ أَنْ أَبدَأَ مِن جَديدٍ في مَمَرّاتٍ غَريبَةٍ مَرَّةً أُخرى؟

دَخَلْتُ مَرحَلَةَ المُراهَقَةِ مَعَ هَذا الرَّحيلِ الجَديدِ، وَمَعَها حَمَلتُ عَلى كَتِفي مَسؤوليّاتٍ أَكبَرَ. لَم تَعُدِ الدِّراسَةُ سَهلَةً كَما كانَت في الصُّفوفِ الأُولى، صارَتِ المَناهِجُ أَثقَلَ، وَالامْتِحاناتُ أَصعَبَ،

وَالانْتِظارُ أَطوَلَ. كُنتُ أَستَيقِظُ كُلَّ صَباحٍ مُثْقَلَةً بِالحَنينِ، أُحاوِلُ أَنْ أَفتَحَ نَفسي، وَأُقنِعَ نَفسي أَنَّ عَلَيَّ أَنْ أُواصِلَ مَهْما كانَ الطَّريقُ مُتَعَرِّجًا.

في المَدرَسَةِ الجَديدَةِ كُنتُ أَبدو أَقوَى مِمّا أَشعُرُ. كُنتُ أَضحَكُ، وَأُشارِكُ في الصُّفوفِ، وَأُثبِتُ لَهُم أَنَّني قادِرَةٌ عَلى التَّمَيُّزِ. لَكِن بَداخِلي كُنتُ أَنزِفُ بِصَمتٍ. كُنتُ أَفتَقِدُ تِلكَ اليَدَ الصَّغيرَةَ الَّتي أَمسَكَت بِيَدي في بِدايَةِ الغُرْبَةِ، أَفتَقِدُ أَحاديثَنا في الاسْتِراحَةِ، وَضَحِكاتِنا الَّتي كانَت تُخَفِّفُ عَنّي ثِقْلَ الأَيّامِ.

وَمَعَ كُلِّ هَذا، كُنتُ أُدرِكُ أَنَّ الطَّريقَ لا يَتَوَقَّفُ عِندَ أَحَدٍ. كُنتُ ما أَزالُ صَغيرَةً، لَكِنَّني تَعَلَّمتُ أَنَّ الفَقدَ جُزءٌ مِنَ الرِّحلَةِ، وَأَنَّ الإِصرارَ هُوَ المِفتاحُ الوَحيدُ لِلاستِمرارِ. كُنتُ أَرى نَفسي أَحيانًا ضَعيفَةً، وَأَحيانًا قَوِيَّةً، لَكِنَّني لَم أَفقِدْ أَبدًا ذلِكَ الصَّوتَ الدّاخِلِيَّ الَّذي يَهمِسُ: مَهْما تَغَيَّرَتِ الطُّرُقُ، لا بُدَّ أَنْ تَصِلي.

الفصل السادس: غربة جديدة

حِينَ وَطِئَتْ قَدَمايَ عَتَبَةَ المَدْرَسَةِ الجَديدَةِ، أَدْرَكْتُ أَنَّ الغُرْبَةَ لَيْسَتْ شُعُورًا يَزُورُنا مَرَّةً واحِدَةً فَقَطْ، بَلْ قَدْ يَتَكَرَّرُ كُلَّما تَغَيَّرَتِ الطُّرُقُ. كُنْتُ قَدْ تَجاوَزْتُ أَلَمَ الرَّحِيلِ الأَوَّلِ، وَظَنَنْتُ أَنَّنِي لَنْ أُخْتَبَرَ مِنْ جَديدٍ، لَكِنَّنِي وَجَدْتُ نَفْسِي أَعِيشُ ذاتَ التَّجْرِبَةِ مَرَّةً أُخْرَى، وَرُبَّما بِوَجَعٍ أَعْمَقَ.

هذِهِ المَرَّةَ، لَمْ أَجِدِ الوُجُوهَ الَّتي تَبْتَسِمُ لِي تِلْقائِيًّا، وَلا الصَّديقَةَ الَّتي تُسْرِعُ لِتُمْسِكَ بِيَدِي كَيْ تَسِيرَ مَعِي في المَمَرّاتِ. كُنْتُ أَشْعُرُ أَنَّ الطَّالِباتِ يَنْظُرْنَ إِلَيَّ بِنَظَراتٍ غَرِيبَةٍ، كَأَنَّنِي مُخْتَلِفَةٌ عَنْهُنَّ، كَأَنَّنِي دَخِيلَةٌ عَلى عالَمِهِنَّ. لَمْ يَقْتَرِبْنَ مِنِّي كَما فَعَلَتْ صَدِيقَتِي القَدِيمَةُ، وَلَمْ يَفْتَحْ أَحَدٌ قَلْبَهُ لِي بِالطَّرِيقَةِ ذاتِها.

في الصَّفِّ الخامِسِ ثُمَّ السّادِسِ، شَعَرْتُ بِثِقَلٍ أَكْبَرَ. لَمْ تَكُنِ الدِّراسَةُ سَهْلَةً، المَناهِجُ صارَتْ أَعْمَقَ، وَالامْتِحاناتُ أَصْعَبَ، بَيْنَما كُنْتُ أُواجِهُها وَحْدِي بِلَا سَنَدٍ حَقِيقِيٍّ. نَعَمْ، وَجَدْتُ بَعْضَ الصَّدِيقَاتِ، تَبادَلْنا الأَحادِيثَ وَالضَّحِكاتِ أَحْيانًا، لَكِنَّنِي لَمْ أَجِدْ

بَيْنَهُنَّ مَنْ تُشْبِهُ صَدِيقَتِي القَدِيمَةَ... لَمْ أَجِدْ تِلْكَ اليَدَ الَّتي تَشَبَّثَتْ بِي حِينَ كُنْتُ غَرِيبَةً، وَلَمْ أَجِدْ مَنْ يُعَلِّمُنِي الطَّرِيقَ بِخُطُواتٍ ثابِتَةٍ.

كُنْتُ أَضْحَكُ مَعَهُنَّ أَحْيانًا، لَكِنْ في داخِلِي كُنْتُ أَفْتَقِدُ ذلِكَ الشُّعُورَ العَمِيقَ بِالانْتِماءِ، ذلِكَ الاطْمِئْنانَ الَّذي يَمْنَحُهُ وُجُودُ صَدِيقَةٍ قَرِيبَةٍ مِنَ الرُّوحِ. وَمَعَ كُلِّ امْتِحانٍ كُنْتُ أَخُوضُهُ، وَمَعَ كُلِّ يَوْمٍ يَمُرُّ، كُنْتُ أَزْدادُ وَعْيًا بِأَنَّ بَعْضَ الأَشْخاصِ لا يَتَكَرَّرُونَ، وَأَنَّ بَعْضَ الفَجَواتِ في القَلْبِ تَبْقَى مَفْتُوحَةً مَهْما حاوَلْنا أَنْ نَمْلَأَها.

وَهكَذا، عِشْتُ الصَّفَّ الخامِسَ وَالسّادِسَ وَكَأَنَّنِي أَسِيرُ في مَمَرّاتٍ طَوِيلَةٍ مُظْلِمَةٍ، أَعْرِفُ أَنَّنِي قادِرَةٌ عَلى السَّيْرِ وَحْدِي، لَكِنَّنِي لا أُنْكِرُ أَنِّي كُنْتُ أَفْتَقِدُ النُّورَ الَّذي رافَقَنِي يَوْمًا... النُّورَ الَّذي رَحَلَ مَعَ صَدِيقَتِي القَدِيمَةِ.

الفصل السابع: بزوغ الامل من جديد

دَخَلْتُ المَرْحَلَةَ الإعْدادِيَّةَ، وَلِلْمَرَّةِ الأُولَى لَمْ يَتَغَيَّرْ كُلُّ شَيْءٍ مِنْ حَوْلِي. بَقِيتُ في المَدْرَسَةِ نَفْسِها، بَيْنَ المَمَرّاتِ الَّتي اعْتَدْتُ عَلَيْها، وَالفُصُولِ الَّتي لَمْ تَعُدْ غَرِيبَةً كَما كانَتْ في البِداياتِ. شَعَرْتُ أَنَّ الاسْتِقْرارَ أَخِيرًا طَرَقَ بابِي، وَأَنَّ قَلْبِي صارَ أَكْثَرَ قُدْرَةً عَلى التَّعايُشِ.

وَفي تِلْكَ المَرْحَلَةِ، شاءَتِ الأَقْدارُ أَنْ أَتَعَرَّفَ عَلى صَدِيقَةٍ جَديدَةٍ... اسْمُها تَسْنِيمُ. مُنْذُ لِقائِنا الأَوَّلِ، شَعَرْتُ أَنَّ مَلامِحَها تُشْبِهُ مَلامِحَ صَدِيقَتِي القَدِيمَةِ، لَيْسَ في الشَّكْلِ، بَلْ في الرُّوحِ. كانَتِ ابْتِسامَتُها صادِقَةً، وَكَلِماتُها دافِئَةً، كَأَنَّها رِسالَةٌ صَغِيرَةٌ مِنَ اللهِ تَقُولُ لِي: «لَنْ تَسِيرِي وَحْدَكِ بَعْدَ اليَوْمِ.»

مَعَ تَسْنِيمَ صارَتْ أَيّامِي داخِلَ المَدْرَسَةِ أَهْوَنَ، وَصِرْتُ أَضْحَكُ بِصِدْقٍ مِنْ جَديدٍ. لَمَسْتُ في صُحْبَتِها نَفْسَ الأَمانِ الَّذي كُنْتُ قَدْ فَقَدْتُهُ طَوِيلًا، وَكَأَنَّها النُّسْخَةُ الجَديدَةُ مِنَ النُّورِ الَّذي أَطْفَأَتْهُ الغُرْبَةُ يَوْمًا.

وَلَمْ تَقِفِ الأَقْدارُ عِنْدَ هَذا الحَدِّ، بَلْ مَنَحَتْنِي ما لَمْ أَتَوَقَّعْهُ... الْتَقَيْتُ مِنْ جَديدٍ بِصَدِيقَتِي القَدِيمَةِ، رُوناس، تِلْكَ الَّتي أَمْسَكَتْ بِيَدِي أَوَّلَ مَرَّةٍ في الصَّفِّ الرَّابِعِ. لَمْ تَكُنْ زَمِيلَتِي في المَدْرَسَةِ بَعْدَ الآنَ، لَكِنَّها بَقِيَتْ قَرِيبَةً مِنِّي خارِجَها. مَعَها عادَتِ الذِّكْرَياتُ، وَعادَ جُزْءٌ مِنْ قَلْبِي الَّذي كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّنِي فَقَدْتُهُ إِلى الأَبَدِ.

وَهكَذا، صِرْتُ أَعِيشُ بَيْنَ عالَمَيْنِ:

فِي المَدْرَسَةِ، حَيْثُ تَسْنِيمُ الَّتي جَعَلَتْ أَيّامِي أَخَفَّ وَأَسْهَلَ.

وَخارِجَ المَدْرَسَةِ، حَيْثُ رُوناس الَّتي ما زالَتْ تَحْفَظُ قَلْبِي كَما كانَ في البِداياتِ.

وَبَيْنَ هَذا وَذاكَ، هانَتِ الأَيّامُ. صارَتِ المَدْرَسَةُ أَقَلَّ قَسْوَةً، وَالحَياةُ أَكْثَرَ احْتِمالًا. وَمَعَهُما أَدْرَكْتُ أَنَّ الطَّرِيقَ وَإِنْ تَلاشَى مَرّاتٍ عَدِيدَةً، قَدْ يُزْهِرُ مِنْ جَديدٍ بِأَشْخاصٍ يُضِيئُونَ العَتْمَةَ، وَيُعِيدُونَ لِلرُّوحِ قُوَّتَها.

الفصل الثامن: حين عادت لي نفسي

كانَتْ صَداَقَتِي مَعَ تَسْنِيمَ وَرُوناسَ أَكْثَرَ مِنْ مُجَرَّدِ لِقاءٍ عابِرٍ، كانَتْ يَدًا تَمْتَدُّ لِتَنْتَشِلَنِي مِنْ غَرَقِ الوَحْدَةِ. بَدَأْتُ أَشْعُرُ أَنَّنِي لَسْتُ ضَعِيفَةً كَما كُنْتُ أَظُنُّ، وَأَنَّ قَلْبِي قادِرٌ أَنْ يَنْهَضَ مِنْ جَدِيدٍ إِذا وَجَدَ مَنْ يَفْهَمُهُ.

مَعَ تَسْنِيمَ داخِلَ المَدْرَسَةِ، صِرْتُ أَكْثَرَ انْفِتاحًا. لَمْ أَعُدْ أَخْجَلُ مِنَ المُشارَكَةِ في الصَّفِّ، وَلَمْ تَعُدِ الدُّرُوسُ ثَقِيلَةً كَما كانَتْ. ضَحِكاتُها كانَتْ تَكْسِرُ رَهْبَةَ الأَيَّامِ، وَتُشَجِّعُنِي أَنْ أَرْفَعَ رَأْسِي بِثِقَةٍ. وَمَعَها، عادَ حُلْمِي بِالدِّراسَةِ وَالتَّفَوُّقِ يُضِيءُ بِداخِلِي مِنْ جَدِيدٍ.

أَمَّا رُوناسُ، فَكانَتِ الحِكايةُ مَعَها مُخْتَلِفَةً تَمامًا. عَرَفْتُ أَنَّ قَلْبَها مُثْقَلٌ أَكْثَرَ مِنْ قَلْبِي... فَقَدَتْ والِدَها صَغِيرَةً، وَأُمُّها كانَتْ قاسِيَةً عَلَيْها، قَسْوَةً ما زِلْتُ أَذْكُرُ تَفاصِيلَها الَّتي كانَتْ تُحْرِقُنِي كُلَّما حَكَتْ لِي عَنْها. وَمَعَ مُرُورِ الوَقْتِ، أَصابَها المَرَضُ الخَبِيثُ، السَّرَطانُ، فَأَصْبَحَ جَسَدُها هَزِيلًا وَرُوحُها مُتْعَبَةً. كُنْتُ أَتَأَلَّمُ

عَلَيْها وَكَأَنَّ أَلَمَها يَسْكُنُ داخِلِي، أَبْكِي أَحْيانًا في صَمْتٍ لِأَجْلِها، وَأَدْعُو لَها كُلَّ لَيْلَةٍ أَنْ تَشْفى وَتَجِدَ في حَياتِها رَحْمَةً تَفْتَقِدُها.

ذَلِكَ الحُزْنُ العَمِيقُ الَّذي عِشْتُهُ مَعَها عَلَّمَنِي أَنَّ القُوَّةَ لَيْسَتْ في أَنْ نَخْلُوَ مِنَ الأَلَمِ، بَلْ في أَنْ نَحْمِلَ أَلَمَ مَنْ نُحِبُّ وَنَظَلَّ إِلى جانِبِهِمْ. وَمَعَها عَرَفْتُ أَنَّ مَعْنَى الصَّداقَةِ أَعْمَقُ مِنْ مُجَرَّدِ لِقاءٍ وَضَحِكٍ... إِنَّها مُشارَكَةُ الرُّوحِ بِكُلِّ ما فِيهَا، فَرَحًا كانَ أَمْ وَوَجَعًا.

وَبَيْنَ حُضُورِ تَسْنِيمَ المُضِيءِ، وَأَلَمِ رُوناسَ العَمِيقِ، أَصْبَحَتْ شَخْصِيَّتِي أَكْثَرَ نُضْجًا. صِرْتُ أُثَمِّنُ ما أَمْلِكُ، وَأَدْرَكْتُ أَنَّ الدِّراسَةَ لَمْ تَعُدْ مُجَرَّدَ واجِبٍ مَدْرَسِيٍّ، بَلْ وَسِيلَةً لِأُحَقِّقَ نَفْسِي وَأَكُونَ قَوِيَّةً كَيْ أَسْتَطِيعَ أَنْ أُسانِدَ مَنْ أُحِبُّ.

لَقَدْ عادَتْ لِي نَفْسِي... لا كامِلَةً كَما كانَتْ، وَلَكِنْ أَقْوَى وَأَكْثَرَ إِيمَانًا بِأَنَّ الحَياةَ مَهْما قَسَتْ، فَإِنَّ وُجُودَ أَشْخاصٍ مِثْلَ تَسْنِيمَ وَرُوناسَ يَجْعَلُ الطَّرِيقَ أَهْوَنَ، وَيَزْرَعُ في القَلْبِ أَمَلًا لا يَمُوتُ.

وَمَعَ مُرُورِ السِّنِينَ مِنَ الصَّفِّ السّابِعِ حَتَّى التّاسِعِ، لَمْ أَتَوَقَّفْ عِنْدَ هاتَيْنِ الصَّدِيقَتَيْنِ فَقَطْ، بَلْ تَعَرَّفْتُ عَلى صَدِيقَاتٍ أُخْرَيَاتٍ. بَعْضُهُنَّ تَرَكْنَ في قَلْبِي أَثَرًا جَمِيلًا، وَلَكِنْ كَثِيراتٌ مِنْهُنَّ

خَذَلْنَنِي، فَتَعَلَّمْتُ أَنَّ لَيْسَ كُلُّ مَنْ يَبْتَسِمُ لَنَا يَحْمِلُ في قَلْبِهِ صِدْقًا. هَذا جَعَلَنِي أَكْثَرَ حَذَرًا، وَأَكْثَرَ قُدْرَةً عَلى تَمْيِيزِ النُّفُوسِ مِنْ حَوْلِي.

وَ هكَذا، لَمْ يَكُنِ الطَّرِيقُ مَفْرُوشًا بِالوُرُودِ دائِمًا، وَلَكِنَّهُ كانَ مَلِيئًا بِالدُّرُوسِ. وَمَعَ كُلِّ تَجْرِبَةٍ، كُنْتُ أَشْعُرُ أَنَّنِي أَبْنِي نَفْسِي مِنْ جَدِيدٍ، وَأَقْتَرِبُ أَكْثَرَ مِنَ الفَتاةِ الَّتي أُرِيدُ أَنْ أَكُونَها.

وَلَعَلَّ القادِمَ يَحْمِلُ لِي قِصَصًا أُخْرَى، وَأَشْخاصًا آخَرِينَ... بَعْضُهُمْ قَدْ يَتْرُكُونَ أَثَرًا، وَبَعْضُهُمْ قَدْ يَرْحَلُونَ، وَلَكِنَّنِي أَصْبَحْتُ أَكْثَرَ يَقِينًا أَنَّ الأَمَلَ سَيَظَلُّ يُرافِقُنِي، ما دُمْتُ أُؤْمِنُ أَنَّ اللهَ لا يَتْرُكُنِي وَحْدِي أَبَدًا.

الفصل التاسع: دروس الخذلان

لَمْ تَكُنْ صَدَاقَاتِي كُلُّها كَصَدَاقَتِي مَعَ تَسْنِيمَ وَرُوناسَ. فَفِي طَرِيقِي، مِنَ السّابِعِ حَتَّى التّاسِعِ، تَعَرَّفْتُ عَلى صَدِيقَاتٍ كَثِيرَاتٍ، ظَنَنْتُ أَنَّ قُلُوبَهُنَّ تُشْبِهُ قَلْبِي، وَأَنَّ الأَيَّامَ سَتَجْمَعُنَا عَلَى الخَيْرِ. وَلَكِنِ الحَقِيقَةُ لَمْ تَكُنْ دائِمًا كَما تَوَقَّعْتُ...

خَذَلَنِي بَعْضُهُنَّ فِي مَواقِفَ لَمْ أَنْسَهَا، تَرَكْنَنِي وَحِيدَةً فِي أَوْقاتٍ كُنْتُ بِأَمَسِّ الحاجَةِ إِلَيْهِنَّ. صَدَمَنِي أَنَّ الابْتِسامَةَ قَدْ تُخْفِي خَلْفَهَا غَدْرًا، وَأَنَّ بَعْضَ الكَلِماتِ الحُلْوَةِ لا تَحْمِلُ صِدْقًا فِي داخِلِها. كُنْتُ أَتَأَلَّمُ، أَبْكِي فِي صَمْتٍ، وَأَسْأَلُ نَفْسِي: لِماذا يَرْحَلُ البَعْضُ بِسُهُولَةٍ؟

وَلَكِنْ مَعَ كُلِّ خَيْبَةٍ، كُنْتُ أَتَعَلَّمُ. وَمَعَ كُلِّ دَمْعَةٍ، كُنْتُ أَزْدادُ صَلابَةً. اكْتَشَفْتُ أَنَّ الصَّداقَةَ لَيْسَتْ بِكَثْرَتِها، بَلْ بِصِدْقِها، وَأَنَّ القُلُوبَ الوَفِيَّةَ قَلِيلَةٌ، وَلَكِنَّها أَثْمَنُ مِنَ الدُّنْيا كُلِّها.

وَهكَذا، خَرَجْتُ مِنْ تِلْكَ السِّنِينَ مُحَمَّلَةً بِجُرُوحٍ صَغِيرَةٍ، وَلَكِنَّهَا عَلَّمَتْنِي أَنْ أَثِقَ بِقَلْبِي أَوَّلًا، وَأَلَّا أَسْمَحَ لِخِذْلَانِ الآخَرِينَ أَنْ يَكْسِرَنِي مِنْ جَدِيدٍ.

الفصل العاشر: فقيد بولادةٍ جديدة

وَلَكِنَّ الحَياةَ لَمْ تَكْتَفِ بِهَذا الِاخْتِبارِ؛ فَفِي يَوْمٍ جاءَنِي خَبَرٌ جَمَّدَ قَلْبِي وَاهْتَزَّ عَقْلِي. تُوُفِّيَتْ رُوناسُ ـ حَبِيبَةُ الرُّوحِ وَصَدِيقَةُ القَلْبِ ـ بَعْدَ مَعْرَكَةٍ طَوِيلَةٍ مَعَ المَرَضِ الخَبِيثِ. شَعَرْتُ بِأَنَّ جُزْءًا مِنِّي قَدِ اخْتَفَى، وَأَنَّ العالَمَ صارَ أَثْقَلَ. بَكَيْتُها بِصَمْتٍ طَوِيلٍ، وَتَوَلَّدَتْ فِي صَدْرِي حُرْقَةٌ لا تُطْفِئُها الكَلِماتُ. كانَ فَقْدانُها عِلَّةً جَدِيدَةً لِلْحُزْنِ، وَلَكِنَّهُ أَيْضًا دَرْسٌ قاسٍ فِي الصَّبْرِ وَحَجْمِ الحُبِّ الَّذي يُمْكِنُ أَنْ نَحْمِلَهُ لِغَيْرِنا.

وَمَعَ هَذا الأَلَمِ الكَبِيرِ، دَخَلَتْ حَياتِي مُنْقِذَةٌ لَمْ أَتَوَقَّعْها. صَدِيقَةٌ أُخْرَى جاءَتْ فِي وَقْتٍ كادَ اليَأْسُ أَنْ يَسْتَوْطِنَ قَلْبِي؛ أَكْبَرُ مِنِّي بِبِضْعِ سِنِينَ، وَلَكِنَّ وُجُودَها كانَ كَالْوَطَنِ. كانَتِ السَّنَدَ حِينَ انْهَرْتُ، اليَدَ الَّتي تَمْسَحُ الدُّمُوعَ، وَالصَّوْتَ الَّذي يُعِيدُ لِلنَّهارِ لَوْنَهُ. مَعَها شَعَرْتُ أَنَّ الجُرْحَ يَهْدَأُ شَيْئًا فَشَيْئًا، وَأَنَّ قَلْبِي قادِرٌ عَلَى النَّبْضِ مِنْ جَدِيدٍ. عَلَّمَتْنِي كَيْفَ أَسْتَقْبِلُ العَوْنَ دُونَ خَجَلٍ، وَكَيْفَ أَكُونَ صَدِيقَةً كَما أُحِبُّ أَنْ أُعامَلَ.

فَمِنْ خِذْلانِ البَعْضِ، وَمِنْ حُزْنِ فَقْدانِ رُوناسَ، وَمِنْ دِفْءِ صَدِيقَتِي الجَدِيدَةِ، خَرَجْتُ مُصْقَلَةً أَقْوَى. تَعَلَّمْتُ أَنْ أُمَيِّزَ النُّفُوسَ، وَأَتَمَسَّكَ بِالقُلُوبِ الَّتي تَسْتَحِقُّ البَقاءَ، وَأُفْسِحَ مَساحَةً لِلْحُزْنِ وَالفَرَحِ مَعًا.

وَهكَذا، كانَتْ تِلْكَ السَّنَواتُ مَحَطّاتٍ مُؤْلِمَةً وَمَلِيئَةً بِالدُّرُوسِ؛ جُرْحٌ يُؤْلِمُنِي، وَيَدٌ تَحْمِلُنِي، وَتَجْرِبَةٌ تُعَلِّمُنِي كَيْفَ أَصِيرَ أَكْثَرَ حِكْمَةً فِي اخْتِياراتِي، وَأَكْثَرَ قُدْرَةً عَلَى التَّحَمُّلِ.

الفصل الحادي العاشر: عودة الطموح

بَعْدَ أَنْ دَخَلَتْ آلاءُ حَياتِي، شَعَرْتُ أَنَّ اللهَ عَوَّضَنِي عَنْ كَثِيرٍ مِمَّا فَقَدْتُ. كانَتْ مُخْتَلِفَةً عَنِ الجَمِيعِ... أَكْبَرَ مِنِّي بِسِنِينَ قَلِيلَةٍ، لَكِنَّهَا كانَتْ تَحْمِلُ قَلْبًا رَحِيمًا وَعَقْلًا ناضِجًا. صارَتْ لِي بِمَثابَةِ الأُخْتِ وَالرُّوحِ وَالسَّنَدِ، تَرْفَعُنِي كُلَّما كِدْتُ أَسْقُطُ، وَتُذَكِّرُنِي أَنَّ الحَياةَ رَغْمَ قَسْوَتِها تَسْتَحِقُّ أَنْ نُكْمِلَ الطَّرِيقَ.

مَعَ آلاءَ، عادَ الأَمَلُ يَسْكُنُنِي مِنْ جَدِيدٍ. صِرْتُ أَنْظُرُ إِلى المَدْرَسَةِ بِعُيُونٍ مُخْتَلِفَةٍ، لَمْ تَعُدْ مُجَرَّدَ جُدْرانٍ وَصُفُوفٍ، بَلْ صارَتْ ساحَةً أَبْنِي فِيهَا مُسْتَقْبَلِي. كانَتْ تُشَجِّعُنِي دائِمًا أَنْ أَدْرُسَ بِجِدٍّ، أَنْ أَضَعَ لِنَفْسِي هَدَفًا، وَأَنْ أُؤْمِنَ أَنَّ النَّجاحَ هُوَ الطَّرِيقُ الوَحِيدُ لِأُعَوِّضَ كُلَّ ما كُسِرَ داخِلِي.

كُنْتُ أَراهَا تَبْتَسِمُ لِي وَتَقُولُ: «لا تَجْعَلِي الماضِي يَسْرِقُ مُسْتَقْبَلَكِ.» وَمَعَ كَلِماتِها، بَدَأْتُ أَسْتَعِيدُ طُمُوحِي شَيْئًا فَشَيْئًا. لَمْ يَعُدِ التَّفَوُّقُ مُجَرَّدَ حُلْمٍ بَعِيدٍ، بَلْ صارَ واجِبًا أُقاتِلُ لِأَجْلِهِ، وَفِعْلًا بَدَأَتْ خُطُواتِي تَسِيرُ بِثِقَةٍ نَحْوَ غَدٍ أَفْضَلَ.

وَهكَذا، بَيْنَ أَلَمِ فَقْدانِ رُوناسَ، وَدِفْءِ صَداقَةِ آلاءَ، عَرَفْتُ أَنَّ الحَياةَ لا تَتَوَقَّفُ عِنْدَ جُرْحٍ، بَلْ تَفْتَحُ لَنا أَبْوابًا جَدِيدَةً كَيْ نَسْتَمِرَّ.

وَعُدْتُ لِنَفْسِي مِنْ جَدِيدٍ، أَكْثَرَ إِصْرارًا عَلى أَنْ أُكْمِلَ دِراسَتِي وَأَصْنَعَ لِحَياتِي مَعْنًى يُلِيقُ بِكُلِّ ما مَرَرْتُ بِهِ.

الفصل الثاني العاشر: ولادة الحلم

وَسَطَ كُلِّ ما مَرَرْتُ بِهِ مِنْ آلامٍ وَخَيْباتٍ، وَبَيْنَ لَحَظاتِ القُوَّةِ الَّتِي اكْتَسَبْتُها شَيْئًا فَشَيْئًا، بَدَأَتْ مَلامِحُ طَرِيقِي تَتَّضِحُ أَمامِي. لَمْ يَعُدِ السُّؤَالُ: «ماذا سَأَفْعَلُ بِمُسْتَقْبَلِي؟» يُرْبِكُنِي كَما فِي السَّابِقِ، بَلْ صِرْتُ أَرَى الهَدَفَ بِوُضُوحٍ... نَعَمْ، لَقَدْ حَدَّدْتُ حُلْمِي: أُرِيدُ أَنْ أَكُونَ مُحامِيَةً.

كانَ داخِلِي صَوْتٌ قَوِيٌّ يُلِحُّ عَلَيَّ: أَنْ أَقِفَ إِلى جانِبِ المَظْلُومِينَ، أَنْ أَرْفَعَ عَنْهُمْ ما عَجَزُوا عَنْ رَفْعِهِ وَحْدَهُمْ، أَنْ أَكُونَ اليَدَ الَّتِي تُدافِعُ عَنِ الحَقِّ، بَعْدَ أَنْ عَرَفْتُ جَيِّدًا قَسْوَةَ الظُّلْمِ وَمُرَارَتَهُ. مَعَ كُلِّ قِصَّةٍ عِشْتُها، وَمَعَ كُلِّ دَمْعَةٍ رَأَيْتُها، ازْدادَ يَقِينِي أَنَّ القانُونَ لَيْسَ مُجَرَّدَ دِراسَةٍ، بَلْ رِسالَةُ حَياةٍ.

صِرْتُ أَرَى نَفْسِي بَيْنَ الكُتُبِ، أَبْحَثُ فِي القَوانِينِ، وَأَتَخَيَّلُ لَحْظَةً أَقِفُ فِيهَا بِثَباتٍ وَأُدافِعُ عَنْ حَقٍّ ضائِعٍ. كانَ الحُلْمُ كَبِيرًا،

لَكِنَّهُ لَمْ يُخِفْنِي، بَلْ مَنَحَنِي قُوَّةً مُضاعَفَةً لِأَجْتَهِدَ أَكْثَرَ وَأُثْبِتَ أَنَّنِي قادِرَةٌ عَلى الوُصُولِ.

وَمِنْ تِلْكَ اللَّحْظَةِ، لَمْ تَعُدْ دِراسَتِي مُجَرَّدَ مَراحِلَ أَعْبُرُها، بَلْ خُطُواتٍ مُتَّصِلَةً تُقَرِّبُنِي مِنَ الحُلْمِ الَّذِي صارَ يُضِيءُ داخِلِي كَالنَّجْمِ.

الفصل الثالث عشر: ملامح قوة

لَمْ أَعُدْ تِلْكَ الطِّفْلَةَ الَّتِي تَبْكِي عِنْدَ أَوَّلِ خِذْلانٍ، أَوِ الَّتِي تَرْتَبِكُ أَمامَ أَوَّلِ جِدارٍ يَقِفُ فِي طَرِيقِها. السَّنَواتُ الماضِيَةُ، بِما حَمَلَتْهُ مِنْ أَلَمٍ وَفَقْدانٍ، وَمِنْ صَداقاتٍ صادِقَةٍ وَأُخْرَى كاذِبَةٍ، صاغَتْ فِي داخِلِي مَلامِحَ جَدِيدَةً لَمْ أَعْرِفْها مِنْ قَبْلُ.

صِرْتُ أَكْثَرَ قُوَّةً فِي مُواجَهَةِ المَواقِفِ، وَأَكْثَرَ وَعْيًا فِي اخْتِياراتِي. تَعَلَّمْتُ أَلَّا أَضَعَ قَلْبِي بَيْنَ أَيْدِي الجَمِيعِ، وَأَنْ أَثِقَ بِنَفْسِي قَبْلَ أَنْ أَطْلُبَ الثِّقَةَ مِنَ الآخَرِينَ. حَتَّى نَظْرَتِي لِلدِّراسَةِ تَغَيَّرَتْ؛ لَمْ تَعُدْ مُجَرَّدَ عِبْءٍ يَوْمِيٍّ، بَلْ صارَتْ ساحَةً أُثْبِتُ فِيهَا لِنَفْسِي أَنَّنِي قادِرَةٌ، وَأَنَّ تَعَبِي لَنْ يَضِيعَ هَبَاءً.

النَّاسُ مِنْ حَوْلِي بَدَؤُوا يُلاحِظُونَ هذَا التَّغَيُّرَ: ثِقَتِي وَأَنا أُشارِكُ فِي الصَّفِّ، هُدُوئِي فِي مُواجَهَةِ الخِلافاتِ، وَصَبْرِي عَلَى

المَواقِفِ الَّتِي كانَتْ تُرْبِكُنِي مِنْ قَبْلُ. كَأَنَّنِي أَعَدْتُ تَشْكِيلَ نَفْسِي مِنْ جَدِيدٍ، لا لِأُصْبِحَ شَخْصًا آخَرَ، بَلْ لِأَكُونَ النُّسْخَةَ الأَقْوَى مِنِّي.

وَلِأَوَّلِ مَرَّةٍ، شَعَرْتُ أَنَّنِي أُمْسِكُ زِمامَ حَياتِي بِيَدِي، وَأَنَّنِي مُسْتَعِدَّةٌ أَنْ أُواجِهَ القادِمَ بِثِقَةٍ، مَهْما كانَ صَعْبًا.

الفصل الرابع عشر: حين احترق البيت

شَاءَ القَدَرُ أَنْ يَخْتَبِرَنِي بِامْتِحَانٍ جَدِيدٍ، امْتِحَانٍ لَمْ أَتَوَقَّعْهُ أَبَدًا. فِي يَوْمٍ عَادِيٍّ، وَبَيْنَمَا كُنْتُ أَعِيشُ أَحْلَامِي الصَّغِيرَةَ وَأُخَطِّطُ لِمُسْتَقْبَلِي، حَدَثَتْ حَادِثَةٌ لَقَدْ زَلْزَلَتْ قَلْبِي: مَنْزِلُنَا احْتَرَقَ.

ذَلِكَ البَيْتُ لَمْ يَكُنْ مُجَرَّدَ جُدْرَانٍ وَسَقْفٍ، بَلْ كَانَ ثَمَرَةَ تَعَبِ وَالِدِي، وَمَلَاذَ طُفُولَتِي، وَمَكَانَ ذِكْرَيَاتِي. كُلُّ زَاوِيَةٍ فِيهِ كَانَتْ تَحْمِلُ ضِحْكَةً أَوْ دَمْعَةً، وَكُلُّ رُكْنٍ فِيهِ كَانَ يَحْكِي قِصَّةً مِنْ حَيَاتِنَا. كَانَ بَيْتًا جَمِيلًا، بَنَاهُ أَبِي بِحُبٍّ وَتَعَبٍ لِيَكُونَ لَنَا وَطَنًا آمِنًا، وَهَا هُوَ فِي لَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ يَتَحَوَّلُ إِلَى رَمَادٍ.

وَقَفْتُ أَمَامَهُ عَاجِزَةً، لَا أُصَدِّقُ أَنَّ المَكَانَ الَّذِي احْتَضَنَنِي سِنِينَ لَمْ يَعُدْ مَوْجُودًا. شَعَرْتُ وَكَأَنَّ جُزْءًا مِنِّي احْتَرَقَ مَعَهُ، وَكَأَنَّ

الذِّكْرَيَاتِ تَتَنَاثَرُ مَعَ الدُّخَانِ. كَانَ الحُزْنُ عَمِيقًا، لَكِنَّنِي فِي دَاخِلِي كُنْتُ أَتَمْتِمُ: «قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ».

ذَلِكَ الحَادِثُ عَلَّمَنِي أَنَّ الدُّنْيَا زَائِلَةٌ، وَأَنَّ مَا يُبْنَى بِالحِجَارَةِ قَدْ يَنْهَارُ، وَلَكِنَّ مَا يُبْنَى فِي القَلْبِ لَا يَحْتَرِقُ أَبَدًا. رُبَّمَا أَخَذَتِ النَّارُ بَيْتَنَا، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تُطْفِئَ الأَمَلَ الَّذِي بَدَأَ يَكْبُرُ دَاخِلِي

الفصل الخامس عشر: العودة إلى البيت

بَعْدَ رِحْلَةٍ طَوِيلَةٍ مِنَ الْمُعَانَاةِ، بَيْنَ الِانْتِقَالِ مِنْ بَيْتٍ إِلَى آخَرَ وَمِنْ مَنْطِقَةٍ إِلَى أُخْرَى، جَاءَ الْيَوْمُ الَّذِي طَالَمَا انْتَظَرْنَاهُ: يَوْمُ عَوْدَتِنَا إِلَى مَنْزِلِنَا. ذَلِكَ الْمَكَانُ الَّذِي ظَنَنْتُهُ انْتَهَى وَاحْتَرَقَ مَعَ ذِكْرَيَاتِهِ، عَادَ مِنْ جَدِيدٍ بَعْدَمَا أَصْلَحْنَاهُ بِجُهْدٍ وَصَبْرٍ.

حِينَ وَطِئَتْ قَدَمَايَ عَتَبَةَ الْبَيْتِ، شَعَرْتُ بِشَيْءٍ يُشْبِهُ الْعِنَاقَ. الْجُدْرَانُ الَّتِي كَانَتْ سَوْدَاءَ مِنْ أَثَرِ الْحَرِيقِ اسْتَعَادَتْ بَيَاضَهَا، وَالزَّوَايَا الَّتِي كَانَتْ تَحْمِلُ رَائِحَةَ الدُّخَانِ عَادَتْ تَنْبُضُ بِالْحَيَاةِ. صَحِيحٌ أَنَّ الْبَيْتَ لَمْ يَعُدْ كَمَا كَانَ تَمَامًا، لَكِنَّهُ كَانَ بَيْتَنَا، وَكَانَ يَكْفِي أَنْ أَتَنَفَّسَ فِيهِ لِأَشْعُرَ بِالرَّاحَةِ وَالْأَمَانِ.

الأَقْدَارُ رَتَّبَتِ الأُمُورَ بِطَرِيقَةٍ لَمْ أَتَوَقَّعْهَا. لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ دَاعٍ لِنَقْلِي مِنْ مَدْرَسَتِي، لِأَنَّ الْعَالَمَ كُلَّهُ كَانَ يَعِيشُ ظَرْفًا اسْتِثْنَائِيًّا اسْمُهُ كُورُونَا. فَجْأَةً تَحَوَّلَتِ الدِّرَاسَةُ إِلَى تَعْلِيمٍ عَنْ بُعْدٍ، وَبَدَلَ أَنْ أَعِيشَ قَلَقَ التَّنَقُّلِ وَالِانْدِمَاجِ فِي مَكَانٍ جَدِيدٍ، وَجَدْتُ نَفْسِي أَدْرُسُ مِنْ دَاخِلِ مَنْزِلِي، بَيْنَ جُدْرَانِهِ الَّتِي عَادَتْ تَحْتَضِنُنِي.

كَانَتْ تَجْرِبَةً غَرِيبَةً: بَيْتُنَا الَّذِي عَادَ مِنَ الرَّمَادِ صَارَ شَاهِدًا عَلَى مَرْحَلَةٍ جَدِيدَةٍ مِنْ حَيَاتِي. أَجْلِسُ فِي غُرْفَتِي أَمَامَ شَاشَةٍ صَغِيرَةٍ، أَتَنَقَّلُ بَيْنَ الدُّرُوسِ وَالْكُتُبِ، وَبَيْنَمَا فِي الْخَارِجِ كَانَ الْعَالَمُ كُلُّهُ يَتَغَيَّرُ. كُنْتُ أَشْعُرُ أَنَّ اللهَ عَوَّضَنِي بِهَذَا الشَّكْلِ، وَكَأَنَّ الْعَوْدَةَ لِلْبَيْتِ لَمْ تَكُنْ مُجَرَّدَ رُجُوعٍ إِلَى جُدْرَانٍ، بَلْ رُجُوعًا إِلَى نُقْطَةِ أَمَانٍ وَسَطَ فَوْضَى عَالَمِيَّةٍ.

لَقَدْ أَدْرَكْتُ أَنَّ الْبَيْتَ لَيْسَ مُجَرَّدَ مَكَانٍ، بَلْ هُوَ جَذْرٌ يَشُدُّكَ لِلْأَرْضِ مَهْمَا عَصَفَتْ بِكَ الرِّيَاحُ. وَالْعَوْدَةُ إِلَيْهِ بَعْدَ كُلِّ مَا مَرَّ بِنَا كَانَتْ دَلِيلًا عَلَى أَنَّ الصَّبْرَ، مَهْمَا طَالَ، لَا يَضِيعُ.

الفصل السادس عشر: بداية المرحلة المصيرية

بَعْدَ أَنْ عُدْنَا إِلَى بَيْتِنَا وَاسْتَقَرَّتْ حَيَاتُنَا مِنْ جَدِيدٍ، شَعَرْتُ وَلِأَوَّلِ مَرَّةٍ مُنْذُ زَمَنٍ أَنَّ الأَرْضَ تَحْتَ قَدَمَيَّ ثَابِتَةٌ. لَمْ يَعُدْ هُنَاكَ رَحِيلٌ مِنْ مَكَانٍ إِلَى آخَرَ، وَلَا قَلَقٌ مِنَ الْغَدِ. كَانَ الِاسْتِقْرَارُ الَّذِي افْتَقَدْتُهُ طَوِيلًا قَدْ عَادَ أَخِيرًا، وَمَعَهُ رَاحَةٌ وَسَكِينَةٌ جَعَلَتْنِي أَكْثَرَ اسْتِعْدَادًا لِمَا يَنْتَظِرُنِي.

وَلِأَنَّنِي لَمْ أَصِلْ إِلَى هُنَا وَحْدِي، لَمْ يَكُنْ بِوُسْعِي أَنْ أَنْسَى جُهْدَ وَالِدَيَّ. تَعَبُهُمَا مَحْفُورٌ فِي قَلْبِي، لَا يَزُولُ مَعَ الزَّمَنِ. هُمَا مَنْ تَحَمَّلَا صُعُوبَةَ الْحَيَاةِ، وَضَحَّيَا بِرَاحَتِهِمَا لِأَجْلِ أَنْ أَسْتَمِرَّ أَنَا وَأَشِقَّائِي فِي طَرِيقِنَا. كَانَا السَّنَدَ الْحَقِيقِيَّ، وَمِنْ غَيْرِ دَعْمِهِمَا مَا كُنْتُ أَصِلُ إِلَى هَذِهِ اللَّحْظَةِ.

لَكِنْ فِي الْمُقَابِلِ، كُنْتُ أَعِيشُ مُعَانَاةً فِي مُحِيطِ الْمَدْرَسَةِ. لَمْ يَكُنْ كُلُّ شَيْءٍ وَرْدِيًّا؛ كُنْتُ أَشْعُرُ أَحْيَانًا بِالِاخْتِلَافِ، وَأَحْيَانًا بِالضَّغْطِ النَّفْسِيِّ مِنْ أَجْوَاءٍ مَلِيئَةٍ بِالتَّحَدِّيَاتِ. كُنْتُ أَتَعَامَلُ مَعَ مَشَاعِرَ ثَقِيلَةٍ، بَيْنَ نَظَرَاتٍ لَا أَفْهَمُهَا وَكَلِمَاتٍ لَمْ أَكُنْ أَسْتَحِقُّهَا. تِلْكَ الْمُعَانَاةُ زَرَعَتْ دَاخِلِي قُوَّةً خَفِيَّةً، وَكَأَنَّهَا تَقُولُ لِي: «إِنْ أَرَدْتِ أَنْ تَصِلِي، عَلَيْكِ أَنْ تَصْمُدِي».

وَمَعَ ذَلِكَ، كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّنِي عَلَى أَعْتَابِ مَرْحَلَةٍ مَصِيرِيَّةٍ، مَرْحَلَةٍ لَا يُفْصِلُنِي عَنْهَا سِوَى خُطْوَةٍ وَاحِدَةٍ لِتَبْدَأَ رِحْلَتِي الْحَقِيقِيَّةُ نَحْوَ حُلْمِي الْكَبِيرِ: أَنْ أُصْبِحَ مُحَامِيَةً.

وَصَلْتُ إِلَى الصَّفِّ الأَهَمِّ فِي حَيَاتِي، مَرْحَلَةِ التَّوْجِيهِي. كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْعَامَ سَيَكُونُ نُقْطَةَ التَّحَوُّلِ، الْبَوَّابَةَ الَّتِي سَتَقُودُنِي إِمَّا إِلَى طَرِيقِي الَّذِي حَلِمْتُ بِهِ، أَوْ إِلَى مَكَانٍ آخَرَ بَعِيدٍ عَمَّا أُرِيدُهُ. وَرَغْمَ صُعُوبَةِ التَّفْكِيرِ بِالْمَسْؤُولِيَّةِ، كُنْتُ أَشْعُرُ أَنَّ كُلَّ مَا عِشْتُهُ مِنْ مِحَنٍ وَتَجَارِبَ كَانَ يُعِدُّنِي لِهَذِهِ اللَّحْظَةِ.

اخْتَرْتُ الْفَرْعَ الأَدَبِيَّ، لَا تَرَدُّدَ وَلَا خَوْفَ. كَانَ الْقَرَارُ بِالنِّسْبَةِ لِي بَدِيهِيًّا، كَأَنَّهُ خُلِقَ مِنْ دَاخِلِي. فَهَذَا الْفَرْعُ هُوَ الطَّرِيقُ الَّذِي يَقُودُنِي نَحْوَ الْقَانُونِ، نَحْوَ الْقَاعَةِ الَّتِي سَأَقِفُ فِيهَا يَوْمًا وَأُدَافِعُ عَنِ الْحَقِّ، نَحْوَ الْمِنَصَّةِ الَّتِي سَأَرْفَعُ فِيهَا صَوْتَ الْمَظْلُومِ.

كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّ الطَّرِيقَ لَنْ يَكُونَ سَهْلًا، لَكِنَّنِي كُنْتُ عَلَى يَقِينٍ أَنِّي وَصَلْتُ إِلَى الْمَرْحَلَةِ الَّتِي لَا رَجْعَةَ فِيهَا. لَقَدْ وَضَعْتُ قَدَمِي عَلَى أَوَّلِ السَّطْرِ فِي قِصَّةٍ جَدِيدَةٍ، قِصَّةٍ مَلِيئَةٍ بِالْجِدِّ وَالِاجْتِهَادِ، وَالأَمَلِ بِأَنَّ النِّهَايَةَ سَتَكُونُ عَلَى قَدْرِ كُلِّ هَذَا التَّعَبِ.

الفصل السابع عشر: عام الإمتحان والأختبار

دَخَلْتُ مَرْحَلَةَ التَّوْجِيهِي وَأَنَا أَحْمِلُ فِي دَاخِلِي مِزَاجًا مِنَ الْحَمَاسِ وَالْخَوْفِ. كَانَ عَامًا مُخْتَلِفًا عَنْ كُلِّ مَا سَبَقَهُ؛ كُلُّ يَوْمٍ فِيهِ كَانَ مَحْسُوبًا، وَكُلُّ سَاعَةٍ تَحْمِلُ ثِقْلَ الْمُسْتَقْبَلِ. لَمْ يَكُنْ مُجَرَّدَ سَنَةٍ دِرَاسِيَّةٍ، بَلْ كَانَ اخْتِبَارًا حَقِيقِيًّا لِإِرَادَتِي وَصَبْرِي.

وَمَعَ كُلِّ هَذَا الضَّغْطِ، كَانَ هُنَاكَ مَا يُخَفِّفُ عَنِّي ثِقْلَ الْأَيَّامِ. دُعَاءُ أُمِّي الَّذِي كَانَ يُرَافِقُنِي فِي كُلِّ صَبَاحٍ، كَأَنَّ صَوْتَهَا الطَّيِّبَ حِصْنٌ يَحْمِينِي مِنَ الْقَلَقِ، وَجُهْدُ أَبِي الَّذِي لَمْ يَتَوَقَّفْ لَحْظَةً عَنْ دَعْمِي، يَمُدُّنِي بِالْقُوَّةِ وَيُذَكِّرُنِي دَائِمًا أَنَّ ثَمَرَةَ التَّعَبِ لَا بُدَّ أَنْ تُقْطَفَ. كَانَا مَعًا السَّنَدَ الَّذِي لَا يَنْكَسِرُ، وَالْيَدَ الَّتِي تَنْتَشِلُنِي حِينَ أَشْعُرُ بِالضَّعْفِ.

وَلَمْ أَكُنْ وَحْدِي أَيْضًا. كَانَ هُنَاكَ دَعْمُ صَدِيقَتِي آلاء، الَّتِي بَقِيَتْ قَرِيبَةً رَغْمَ كُلِّ شَيْءٍ، تُمْنِحُنِي كَلِمَاتُهَا دِفْئًا فِي لَحَظَاتِ الْإِحْبَاطِ. أَمَّا تَسْنِيمُ، فَكَانَتْ تَعِيشُ هِيَ الْأُخْرَى نَفْسَ التَّحَدِّي؛ فَالتَّوْجِيهِي كَانَ قَدِ الْتَهَمَ وَقْتَهَا وَطَاقَتَهَا، وَمَعَ انْتِقَالِهَا مِنْ مَدْرَسَتِي صَارَ اللِّقَاءُ بَيْنَنَا أَصْعَبَ. لَكِنْ رَغْمَ بُعْدِهَا، ظَلَّ أَثَرُهَا فِي قَلْبِي، وَظَلَّتِ الذِّكْرَيَاتُ بَيْنَنَا نُورًا لَا يَنْطَفِئُ.

كُنْتُ أُذَاكِرُ حَتَّى سَاعَاتٍ مُتَأَخِّرَةٍ مِنَ اللَّيْلِ، أُحَارِبُ النُّعَاسَ وَأَتَحَدَّى التَّعَبَ، وَكُلَّمَا شَعَرْتُ أَنِّي عَلَى وَشْكِ الِانْهِيَارِ، تَذَكَّرْتُ أَنَّ هُنَاكَ مَنْ يُؤْمِنُ بِي، مَنْ يَرْفَعُ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ مِنْ أَجْلِي، وَمَنْ يَكُدُّ لِيُوَفِّرَ لِي مَا أَحْتَاجُ. ذَلِكَ الشُّعُورُ وَحْدَهُ كَانَ كَافِيًا لِيُعِيدَنِي إِلَى طَاوِلَتِي وَيَمْنَحَنِي الْقُدْرَةَ عَلَى إِكْمَالِ الطَّرِيقِ.

كَانَ عَامًا صَعْبًا، لَكِنَّهُ عَلَّمَنِي أَنَّ الْأَحْلَامَ الْكَبِيرَةَ لَا تُنَالُ بِسُهُولَةٍ، وَأَنَّ النَّجَاحَ لَيْسَ مُجَرَّدَ عَلَامَاتٍ عَلَى وَرَقٍ، بَلْ هُوَ قِصَّةُ صَبْرٍ تَكْتُبُهَا الْأَيَّامُ.

الفصل الثامن عشر: ليلة لا تنسى

جَاءَتْ لَيَالِي الِامْتِحَانَاتِ، وَكَانَتْ أَيَّامًا لَا تُنْسَى، كُلُّ لَيْلَةٍ تَحْمِلُ ثِقْلًا خَاصًّا مِنَ الْخَوْفِ وَالتَّوَتُّرِ. وَلَكِنْ أَكْثَرُ لَيْلَةٍ حَفَرَتْ فِي قَلْبِي كَانَتْ لَيْلَةَ امْتِحَانِ الإِنْجِلِيزِي.

فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، وَقَعَ حَادِثُ سَيَّارَةٍ مَعَ أَبِي. لَمْ يُصِبْهُ أَذًى كَبِيرٌ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ، وَلَكِنَّ الْحَادِثَ كَانَ كَفِيلًا بِأَنْ يُرْبِكَنِي وَيُشَتِّتَ ذِهْنِي تَمَامًا. لَمْ يَسْتَطِعْ أَبِي أَنْ يُحْضِرَ لِي أُسْتَاذًا إِلَى الْبَيْتِ كَمَا وَعَدَنِي، وَلَكِنَّهُ رَغْمَ تَعَبِهِ أَصَرَّ أَنْ يُحْضِرَ لِي الْبِطَاقَاتِ الَّتِي تُسَاعِدُنِي فِي الدِّرَاسَةِ.

جَلَسْتُ أَمَامَ أَوْرَاقِي أُحَاوِلُ أَنْ أَسْتَوْعِبَ كُلَّ شَيْءٍ بِسُرْعَةٍ، وَلَكِنَّ الْحَقِيقَةَ أَنِّي لَمْ أَشْعُرْ بِنَفْسِي جَاهِزَةً لِلِاخْتِبَارِ. كَانَ قَلْبِي يَرْتَجِفُ بِقُوَّةٍ، وَالْقَلَقُ يَلْتَهِمُنِي مِنَ الدَّاخِلِ. دَخَلْتُ قَاعَةَ الِامْتِحَانِ

مَحْمُولَةً بِالْخَوْفِ، وَخَرَجْتُ مِنْهَا وَقَلْبِي غَيْرُ مُطْمَئِنٍّ. شَعَرْتُ أَنَّنِي لَمْ أُقَدِّمْ كَمَا يَجِبُ، وَلَكِنَّنِي أَخْفَيْتُ ذَلِكَ عَنْ وَالِدَيَّ، وَطَمْأَنْتُهُ بِابْتِسَامَةٍ كَيْ لَا أَزِيدَ هَمَّهُ فَوْقَ هَمِّهِ.

كَانَتْ لَيْلَةً صَعْبَةً، وَلَكِنَّهَا عَلَّمَتْنِي أَنَّ الْإِرَادَةَ لَا تَقِفُ عِنْدَ حُدُودِ الظُّرُوفِ، وَأَنَّ بَعْضَ الْمَعَارِكِ نَخُوضُهَا لَيْسَ فَقَطْ مِنْ أَجْلِ أَنْفُسِنَا، بَلْ مِنْ أَجْلِ أَنْ نُخَفِّفَ قَلَقَ مَنْ نُحِبُّ.

الفصل التاسع عشر: يوم النتائج

جاءَ اليومُ الَّذي انتظرتُهُ طويلًا، اليومُ الَّذي حسبتُ لهُ ألفَ حسابٍ. جلستُ أمامَ الشَّاشةِ وقلبي يخفقُ بسرعةٍ، يختلطُ داخلي الأملُ بالخوفِ، والدُّعاءُ بالدُّموعِ. وعندما ظهرتِ النَّتيجةُ... كانتِ الصَّدمةُ. لم تكنْ كما تمنَّيتُ، ولا كما تمنَّى والداي.

رأيتُ الخيبةَ واضحةً في عيونِهم؛ كسفةً حاولوا إخفاءَها بابتساماتٍ باهِتةٍ، لكنِّي كنتُ أقرأُها جيِّدًا. أُمِّي الَّتي لم تُفارِقْها الدَّعواتُ، وأبي الَّذي سَهِرَ وتعبَ ليوفِّرَ لي كلَّ ما أحتاجُ، وحتَّى إخوتي الَّذين انتظروا لحظةَ فرحي... كلُّهم بدَتْ عليهم علاماتُ الحُزنِ. شعرتُ في تلكَ اللَّحظةِ أنِّي خذلتُهم جميعًا.

لكنْ رغمَ ذلكَ، لم يتركوني وحدي في مواجهةِ ألمي. حاولوا أن يخفِّفوا عنِّي، وقالوا لي: "نحنُ فخورونَ بكِ... فخورونَ بما وصلتِ إليهِ، وبقوَّةِ صبرِكِ، وبكلِّ خطوةٍ مشيتِها في هذا الطَّريقِ." كلماتُهم لم تَمحُ وجعي تمامًا، لكنَّها كانت بلسَمًا في قلبٍ مُثقَلٍ بالخذلانِ.

ومعَ هذا، لم يخلُ الموقفُ من مرارةٍ أُخرى. فقد جاءتني الشَّماتةُ من أقربِ النَّاسِ إليَّ، أولئكَ الَّذين ظننتُهم يفرحونَ لفرحي، فإذا بهم يستغلُّونَ لحظةَ ضعفي ليلقوا كلماتِهم القاسيةَ. كانت خيبةً مُضاعفةً، لكنَّني أقسمتُ في قلبي أن أجعلَها دافعًا، لا هزيمةً.

ذلكَ اليومُ علَّمني أنَّ النَّتائجَ ليست نهايةَ الطَّريقِ، وأنَّ الحُلمَ لا يُقاسُ برقمٍ على ورقةٍ، بل بالإصرارِ الَّذي لا ينطفئُ.

الفصل العشرون: ما بعد الخيبة

لَـمْ تَكُنْ خَيْبَتِي فِي يَوْمِ النَّتَائِجِ هِيَ النِّهَايَةَ، رَغْمَ أَنَّهَا أَوْجَعَتْنِي بِعُمقٍ. نَعَمْ، بَكَيْتُ كَثِيرًا، وَشَعَرْتُ أَنَّ الأَرْضَ ضَاقَتْ بِي، لَكِنَّنِي فِي دَاخِلِي كُنتُ أَرْفُضُ الاسْتِسْلَامَ. كُنتُ أَقُولُ لِنَفْسِي: "قَدْ تَعَثَّرْتِ الْيَوْمَ، لَكِنَّكِ لَنْ تَسْقُطِي. لَا زَالَ أَمَامَكِ طَرِيقٌ، وَحُلْمُكِ لَمْ يَمُتْ."

أَصْرَرْتُ عَلَى أَنْ أُكْمِلَ، رَغْمَ التَّعَبِ الَّذِي أَثْقَلَنِي، وَرَغْمَ الْخَوْفِ الَّذِي حَاوَلَ أَنْ يَسْكُنَ دَاخِلِي. كُنتُ أَسْتَجْمِعُ قُوَّتِي مِنْ إِيمَانِي بِاللهِ، وَمِنْ دُعَاءِ أُمِّي وَيَدِ أَبِي الَّتِي لَمْ تَتْرُكْنِي يَوْمًا.

لَكِنْ أَكْثَرُ مَا آذَانِي لَمْ يَكُنِ النَّتِيجَةَ نَفْسَهَا، بَلْ مَوْقِفُ مَنْ كُنتُ أَظُنُّهُنَّ أَصْدِقَائِي. كُلُّ صَدِيقَاتِي نَجَحْنَ، وَلَمْ أَحْزَنْ لِنَجَاحِهِنَّ، بَلْ كُنتُ سَعِيدَةً لَهُنَّ مِنْ قَلْبِي، فَفَرْحَةُ النَّاسِ لَا تَنْقُصُ مِنْ فَرْحَتِي. وَلَكِنْ مَا آلَمَنِي أَنَّهُنَّ لَمْ يُرْسِلْنَ لِي حَتَّى رِسَالَةً صَغِيرَةً، لَمْ يُحَاوِلْنَ أَنْ يُخَفِّفْنَ عَنِّي، لَمْ يُطَبْطِبْنَ عَلَى جُرْحِي بِكَلِمَةٍ. أَدْرَكْتُ حِينَئِذٍ أَنَّ الصَّدَاقَةَ الْحَقِيقِيَّةَ لَا تُقَاسُ بِعَدَدِ الضَّحَكَاتِ الْمُشْتَرَكَةِ، بَلْ بِعَدَدِ الأَيْدِي الَّتِي تُـمَدُّ لَكَ فِي لَحَظَاتِ الْإِنْكِسَارِ.

وَرَغْمَ كُلِّ ذَلِكَ، لَمْ أَسْمَحْ لِلْجِرَاحِ أَنْ تُوقِفَنِي. جَعَلْتُ مِنْ خَيْبَتِي جِسْرًا أَعْبُرُ بِهِ، وَمِنْ صَمْتِي قُوَّةً أُثْبِتُ بِهَا أَنَّنِي سَأَسْتَمِرُّ مَهْمَا حَدَثَ. كُنتُ أَعْلَمُ أَنَّ الطَّرِيقَ طَوِيلٌ، لَكِنَّنِي كُنتُ عَلَى يَقِينٍ أَنَّ إِصْرَارِي سَيَصِلُ بِي يَوْمًا إِلَى الْحُلْمِ الَّذِي وُلِدَ فِي دَاخِلِي مُنْذُ الصِّغَرِ: أَنْ أَكُونَ مُحَامِيَةً.

الفصل الحادي وعشرون: لذة الوصول

بَعْدَ الْخَيْبَةِ الأُولَى لَمْ أَتَوَقَّفْ، بَلْ عُدْتُ وَأَمْسَكْتُ بِخَيْطِ الأَمَلِ مِنْ جَدِيدٍ. سَجَّلْتُ فِي الدَّوْرَةِ الصَّيْفِيَّةِ التَّكْمِيلِيَّةِ، وَرَغْمَ التَّعَبِ وَالضَّغْطِ النَّفْسِيِّ الَّذِي لَازَمَنِي، كُنتُ أَقُولُ لِنَفْسِي فِي كُلِّ يَوْمٍ: "لَنْ أَتْرُكَ الْحُلْمَ يَضِيعُ مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ."

أَيَّامٌ جَدِيدَةٌ مِنَ الدِّرَاسَةِ وَالسَّهَرِ، وَمُحَاوَلَاتٌ لِاسْتِعَادَةِ تَرْكِيزِي وَثِقَتِي بِنَفْسِي. لَمْ يَكُنِ الأَمْرُ سَهْلًا، فَقَدْ كَانَتِ الذِّكْرَيَاتُ الْقَدِيمَةُ تُلَاحِقُنِي، وَالْخَوْفُ مِنَ الْفَشَلِ يَتَسَلَّلُ إِلَى قَلْبِي بَيْنَ حِينٍ وَآخَرَ. وَلَكِنَّنِي لَمْ أَسْمَحْ لَهُ أَنْ يَنْتَصِرَ. كُنتُ أَتَمَسَّكُ بِالْعَمَلِ وَالدُّعَاءِ، وَأَسْتَمِدُّ قُوَّتِي مِنْ دَعْمِ وَالِدَيَّ الَّذَيْنِ لَمْ يَفْقِدَا إِيمَانَهُمَا بِي لَحْظَةً.

وَجَاءَ الْيَوْمُ الَّذِي انْتَظَرْتُهُ، يَوْمُ إِعْلَانِ النَّتَائِجِ. هَذِهِ الْمَرَّةَ، لَمْ تَكُنِ النَّتِيجَةُ مِثَالِيَّةً كَمَا حَلِمْتُ، وَلَمْ يَكُنِ الْمُعَدَّلُ كَمَا تَمَنَّيْتُ، وَلَكِنَّنِي نَجَحْتُ. نَعَمْ، نَجَحْتُ. وَشَعَرْتُ بِلَذَّةِ الِانْتِصَارِ الَّتِي لَا تُضَاهِيهَا لَذَّةٌ، شَعَرْتُ أَنِّي كَسَرْتُ الْقَيْدَ الَّذِي حَاوَلَ أَنْ يُوقِفَنِي.

فَرْحَةُ أَهْلِي فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ لَا تُنْسَى؛ رَأَيْتُ الْبَسْمَةَ الْحَقِيقِيَّةَ عَلَى وُجُوهِهِمْ، وَسَمِعْتُ كَلِمَاتِ الْفَخْرِ فِي أَصْوَاتِهِمْ. حَتَّى أَقَارِبِي وَنَاسِي شَارَكُونِي فَرْحَةَ النَّجَاحِ. وَالأَجْمَلُ مِنْ ذَلِكَ أَنِّي كَسَرْتُ عُيُونَ مَنْ تَمَنَّوْا فَشَلِي، وَأَثْبَتُّ لَهُمْ أَنَّ سُقُوطَ الْمَرْءِ لَا يَعْنِي نِهَايَتَهُ، بَلْ قَدْ يَكُونُ بَدَايَةً لِقُوَّةٍ أَعْظَمَ.

لَقَدْ كَانَ النَّجَاحُ فِي الدَّوْرَةِ الصَّيْفِيَّةِ دَرْسًا عَظِيمًا: أَنَّ الْوُصُولَ لَيْسَ دَائِمًا بِسُرْعَةٍ أَوْ بِسُهُولَةٍ، بَلْ بِالصَّبْرِ وَالْمُثَابَرَةِ. وَرُبَّمَا لَا نَصِلُ كَمَا تَمَنَّيْنَا بِالدِّقَّةِ، وَلَكِنْ يَكْفِينَا أَنْ نَصِلَ، وَأَنْ نَشْعُرَ بِلَذَّةِ الطَّرِيقِ الَّذِي عَبَرْنَاهُ.

الفصل الثاني وعشرون: الوصول الى الحُلم

وَأَخِيرًا جَاءَتِ اللَّحْظَةُ الَّتِي حَلِمْتُ بِهَا طَوِيلًا، اللَّحْظَةُ الَّتِي رَسَمْتُهَا فِي خَيَالِي وَسْطَ الدُّمُوعِ وَالسَّهَرِ وَالتَّعَبِ. أَخَذَنِي أَبِي وَأُمِّي بِيَدَيْهِمَا إِلَى الْجَامِعَةِ، وَهُنَاكَ خَطَوْتُ أُولَى خُطُوَاتِي فِي عَالَمٍ جَدِيدٍ. لَمْ أَكُنْ أُصَدِّقُ أَنَّنِي أُسَجِّلُ فِي كُلِّيَّةِ الْقَانُونِ، أَنَّنِي وَصَلْتُ فِعْلًا إِلَى بَدَايَةِ الطَّرِيقِ الَّذِي حَلِمْتُ بِهِ مُنْذُ الطُّفُولَةِ.

يَااَاهْ... أَيُّ شُعُورٍ هَذَا؟ كَانَ مِزَاجًا مِنَ الْفَرَحِ وَالدَّهْشَةِ، كَأَنَّنِي أَعِيشُ حُلْمًا لَا أُرِيدُ أَنْ يَنْتَهِيَ. لَمْ أَنْهِ دِرَاسَتِي بَعْدُ، وَلَكِنَّنِي أَنْهَيْتُ الْمَدْرَسَةَ بِكُلِّ مَا فِيهَا مِنْ صُعُوبَاتٍ وَانْكِسَارَاتٍ، وَصِرْتُ جَامِعِيَّةً.

أَجْمَلُ مَا فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ كَانَتْ كَلِمَاتُ أَبِي الَّتِي لَا تَزَالُ تَرِنُّ فِي أُذُنِي: "لَقَدْ تَعَدَّيْتِنِي... وَأَصْبَحْتِ جَامِعِيَّةً." تِلْكَ الْجُمْلَةُ وَحْدَهَا كَانَتْ كَافِيَةً لِتَجْعَلَ كُلَّ وَجَعِي السَّابِقِ يَذُوبُ، وَلِتَمْنَحَنِي يَقِينًا أَنَّ تَعَبِي لَمْ يَذْهَبْ هَبَاءً. رَأَيْتُ الْفَخْرَ فِي عَيْنَيْهِ وَعَيْنَيْ أُمِّي، وَكَانَ ذَلِكَ بِالنِّسْبَةِ لِي أَعْظَمَ نَجَاحٍ.

لَقَدْ وَصَلْتُ إِلَى حُلْمِي، صَحِيحٌ أَنَّهَا الْبِدَايَةُ فَقَطْ، وَلَكِنَّ الْبِدَايَةَ هِيَ أَصْعَبُ خُطْوَةٍ. وَمِنْ هُنَا، بَدَأْتُ أَرَى نَفْسِي أَقْرَبَ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ مِنْ لَقَبِ "مُحَامِيَةٍ"، اللَّقَبِ الَّذِي لَنْ يَكُونَ مُجَرَّدَ اسْمٍ، بَلْ رِسَالَةً أَعِيشُ لِأَجْلِهَا.

الفصل الثالث وعشرون: حين انهارت الفرحة

وَصَلْتُ إِلَى الْجَامِعَةِ، وَلَكِنَّ الْفَرْحَةَ الَّتِي تَخَيَّلْتُهَا لَمْ تَأْتِ كَمَا تَوَقَّعْتُ. لَمْ أَكُنْ فَتَاةً تَقْفِزُ مِنَ الْفَرْحَةِ لَدَى دُخُولِهَا الْقَاعَةَ الْأُولَى، وَلَمْ تَلْتَقِطْنِي صُوَرُ الْبَهْجَةِ كَمَا رَأَيْتُ لِلْآخَرِينَ. كَانَتْ هُنَاكَ فَرْحَةٌ سَطْحِيَّةٌ عِنْدَ الْبَعْضِ، وَضَحِكَاتٌ تَبْدُو سَهْلَةً، أَمَّا أَنَا فَدَخَلْتُ عَالَمًا غَرِيبًا عَلَيَّ، عَالَمًا حَمَلَ فِي طَيَّاتِهِ أَصْعَبَ أَيَّامِ حَيَاتِي.

لِمَاذَا؟ لِأَنَّ الْجَامِعَةَ لَمْ تَمْحُ مَا حَمَلْتُهُ فِي قَلْبِي مِنْ تَعَبٍ وَنُدُوبٍ. رَغْمَ أَنَّنِي حَمَلْتُ حَقِيبَةً جَدِيدَةً وَدَفَاتِرَ مُرَتَّبَةً، إِلَّا أَنَّ دَاخِلِي كَانَ مَلِيئًا بِالْمَخَاوِفِ: هَلْ أَنَا كُفْؤَةٌ؟ هَلْ أَحْمِلُ مَا يَكْفِي مِنْ عِلْمٍ وَخِبْرَةٍ لِأُمَثِّلَ حُلْمَ وَالِدَيَّ؟ لِمَاذَا شَعَرْتُ أَنِّي دَخَلْتُ مَكَانًا لَا أَخُصُّهُ؟ أَسْئِلَةٌ لَا تَتَوَقَّفُ.

رَأَيْتُ زَمِيلَاتٍ يَفْرَحْنَ بِوُصُولِهِنَّ، يَتَحَدَّثْنَ عَنْ حَفَلَاتٍ جَدِيدَةٍ، وَصُوَرٍ عَلَى وَسَائِلِ التَّوَاصُلِ، وَتَعَارُفٍ سَرِيعٍ مَعَ أُنَاسٍ جُدُدٍ. وَلِوَزْنٍ مَا، كُلُّ هَذَا بَدَا لِي بَعِيدًا، كَأَنَّنِي أَنْظُرُ إِلَى حَيَاةٍ تَخُصُّ آخَرِينَ. لَمْ أَتَمَكَّنْ مِنَ الِانْسِجَامِ بِسُهُولَةٍ؛ كَانَتْ هُنَاكَ فَجْوَةٌ بَيْنِي وَبَيْنَهُنَّ: لَا نَفْسُ الْخَلْفِيَّةِ، لَا نَفْسُ الْهُمُومِ، وَرُبَّمَا لَا نَفْسُ الْفُرَصِ.

بَدَأَتْ أَيَّامُ الدِّرَاسَةِ تَمُرُّ ثَقِيلَةً. الْمُحَاضَرَاتُ الَّتِي حَلِمْتُ بِهَا أَصْبَحَتْ سَاحَةً لِلصِّرَاعِ. لَمْ أَكُنْ أَضْحَكُ مَعَ الْبَنَاتِ عَلَى أُمُورٍ بَسِيطَةٍ؛ لَمْ يَكُنْ لَدَيَّ طَاقَةٌ لِلِّقَاءَاتٍ أَوْ قَهْوَةِ الصَّبَاحِ. شَعَرْتُ بِالْوَحْدَةِ فِي وَسَطِ الْحَشْدِ. أَحْيَانًا أَتَسَاءَلُ: هَلْ دَخَلْتُ الْجَامِعَةَ حَقًّا أَمْ أَنَّنِي ضَائِعَةٌ فِي مَبْنًى بِلَا مِفْتَاحٍ؟

زَادَ الْأَمْرُ ثِقَلًا حِينَ قَارَنْتُ نَفْسِي بِالْآخَرِينَ: زَمِيلَاتٌ يَبْدُو أَنَّ الطَّرِيقَ مُمَهَّدٌ لَهُنَّ، وَعَائِلَاتٌ تَحْتَفِلُ بِسُهُولَتِهِنَّ فِي التَّأَقْلُمِ. أَمَّا أَنَا فَكُنْتُ أَتَحَسَّسُ جُرْحِي الْقَدِيمَ، وَأَخَافُ أَنْ أُظْهِرَ ضَعْفِي أَمَامَ مُحَاضِرِينَ أَوْ زَمِيلَاتٍ قَدْ يَحْكُمُونَ عَلَيَّ بِسُرْعَةٍ. صَارَ فِي قَلْبِي نَدَمٌ دَفِينٌ: يَا لَيْتَنِي لَمْ أَدْخُلِ الْجَامِعَةَ! ـــ كَلِمَاتٌ مَرَّرْتُهَا عَلَى قَلْبِي مَرَّاتٍ وَمَرَّاتٍ فِي لَحَظَاتِ ضَعْفٍ وَسَهَرٍ.

وَلَكِنْ رَغْمَ كُلِّ ذَلِكَ الْأَلَمِ، لَمْ يَكُنْ فِيَّ اسْتِسْلَامٌ مُطْلَقٌ. كَانَ هُنَاكَ جُزْءٌ صَغِيرٌ لَا يَزَالُ يُهْمِسُ: هَذَا الطَّرِيقُ لَيْسَ لِلْفَرَحِ وَحْدَهُ، بَلْ لِلِاخْتِبَارِ. إِنْ مَرَرْتِ بِهِ بِالصَّبْرِ، سَتَجِدِينَ نَفْسَكِ أَقْوَى. لَمْ أَكُنْ أَعِيشُ فَرْحَةَ الْوُصُولِ كَمَا تَمَنَّيْتُ، وَلَكِنِّي أَيْضًا لَمْ أَتَنَازَلْ عَنْ هَذَا الْحُلْمِ.

كَانَتْ تِلْكَ بَدَايَةَ الِانْكِسَارِ: فَرْحَةٌ وَصَلَتْنِي مَكْسُورَةً، وَبَدَا لِي أَنَّ الْجَامِعَةَ لَمْ تَكُنْ مَكَانَ الِاحْتِفَالِ الَّذِي تَخَيَّلْتُهُ، بَلِ اخْتِبَارًا جَدِيدًا لِلْقُوَّةِ — اخْتِبَارًا عَلَّمَنِي أَنَّ تَحْقِيقَ الْحُلْمِ لَا يَعْنِي تِلْقَائِيًّا نِهَايَةَ الْمُعَانَاةِ، بَلْ بَدَايَةً لِمَعْرَكَةٍ أُخْرَى.

الفصل الرابع وعشرون: بين الحلم والواقع

كَانَ دُخُولِي الْجَامِعَةَ أَشْبَهَ بِفَصْلٍ أَوَّلَ وَأَخِيرَ. نَعَمْ، اسْتَمْتَعْتُ بِالدِّرَاسَةِ مِنْ حَيْثُ الْمَبْدَإِ، لَكِنِّي سُرْعَانَ مَا أَدْرَكْتُ أَنَّ الْأَمْرَ لَمْ يَكُنْ مُجَرَّدَ كُتُبٍ وَمُحَاضَرَاتٍ. كَانَ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ بِكَثِيرٍ، وَكَانَ عَلَيَّ أَنْ أَعِيشَ وَاقِعًا لَمْ أَتَوَقَّعْهُ.

فِي خِضَمِّ انْشِغَالِي بِالتَّأَقْلُمِ مَعَ الْحَيَاةِ الْجَامِعِيَّةِ، جَاءَنِي امْتِحَانٌ أَصْعَبُ بِكَثِيرٍ مِنْ كُلِّ مَا وَاجَهْتُهُ: حَادِثٌ مَعَ أَبِي أَدَّى إِلَى احْتِجَازِهِ لَدَى الْقَانُونِ. كَأَنَّ الدُّنْيَا عَادَتْ لِتُسْقِطَ فَوْقَ رَأْسِي دَفْعَةً وَاحِدَةً، كَيْفَ لِفَتَاةٍ مَا زَالَتْ تَبْحَثُ عَنْ نَفْسِهَا أَنْ تُوَاجِهَ مِثْلَ هَذَا الْمَوْقِفِ؟ شَعَرْتُ أَنَّنِي تَبَهْدَلْتُ، أَنِّي صِرْتُ أَرْكُضُ فِي طُرُقَاتٍ لَا نِهَايَةَ لَهَا، أَبْحَثُ عَنْ قُوَّةٍ تَسْنُدُنِي بَيْنَمَا الْعَالَمُ يَنْهَارُ حَوْلِي.

وَكَأَنَّ ذَلِكَ لَمْ يَكْفِ، حَتَّى وَجَدْتُ نَفْسِي عَاجِزَةً عَنْ دَفْعِ أَبْسَطِ الْأُمُورِ: حَقِّ الْمُوَاصَلَاتِ إِلَى الْجَامِعَةِ. كَانَتْ تِلْكَ اللَّحْظَةُ مُؤْلِمَةً؛ أَنْ تَرَى حُلْمَكَ أَمَامَكَ لَكِنَّكَ مُقَيَّدٌ بِأُمُورٍ صَغِيرَةٍ تَحْرِمُكَ حَتَّى مِنَ الْوُصُولِ إِلَيْهِ.

وَلَكِنَّ اللَّهَ لَا يَتْرُكُ عِبَادَهُ؛ كَانَ هُنَاكَ نُورٌ وَسَطَ هَذَا الظَّلَامِ: أَبْنَاءُ خَالَتِي «أَحمد وَمُحمد» يَسَّرَ اللَّهُ أُمُورَهُمَا، الَّذَانِ كَانَا بِالنِّسْبَةِ لِي أَكْثَرَ مِنْ أَقَارِبَ؛ كَانَا إِخْوَةً حَقِيقِيِّينَ. تَكَفَّلَا بِمَصْرُوفِي دُونَ تَرَدُّدٍ، وَحَمَلَا هَمِّي وَكَأَنَّهُمَا يَرْفَعَانِ ثِقْلًا عَنْ كَتِفَيَّ، وَلَمْ يَجْعَلَانِي أَشْعُرُ أَنَّنِي وَحْدِي. لَنْ أَنْسَى هَذَا الْمَعْرُوفَ مَا حَيِيتُ، سَيَبْقَى دَيْنًا فِي قَلْبِي وَعُرْفَانًا بِالْجَمِيلِ.

لَقَدْ عَلَّمَتْنِي تِلْكَ الْمَرْحَلَةُ أَنَّ الْجَامِعَةَ لَيْسَتْ فَقَطْ مَكَانًا لِلتَّعَلُّمِ، بَلْ مَسْرَحًا لِاخْتِبَارَاتِ الْحَيَاةِ الْكُبْرَى.

وَأَنَّ مَا يَرْفَعُنَا لَيْسَ مَا نَدْرُسُهُ فَقَطْ، بَلْ مَنْ يَقِفُ بِجَانِبِنَا عِنْدَمَا نَعْجِزُ، وَمَنْ يَمُدُّ يَدَهُ إِلَيْنَا حِينَ نَكَادُ نَسْقُطُ

الفصل الخامس وعشرون: بين مقاعد الحياة ومرارة الحياة

أنْهَيْتُ الفَصْلَ الأوَّلَ مِنَ الجَامِعَةِ وَأَنَا أَحْمِلُ فَوْقَ كَتِفَيَّ أَثْقَالًا لَا تُشْبِهُ أَثْقَالَ زَمِيلَاتِي. لَمْ يَكُنْ صَعْبًا فَقَطْ مِنْ حَيْثُ الدِّرَاسَةِ، بَلْ مِنْ حَيْثُ التَّأَقْلُمِ مَعَ حَيَاةٍ جَدِيدَةٍ، مَعَ وُجُوهٍ غَرِيبَةٍ، مَعَ نِظَامٍ مُخْتَلِفٍ كُلِّيًّا عَنِ المَدْرَسَةِ. كُنْتُ أَرَى مَنْ حَوْلِي يَسْتَمْتِعُونَ بِالمَرْحَلَةِ، بَيْنَمَا كُنْتُ أَنَا أُحَاوِلُ أَنْ أَجِدَ لِنَفْسِي مَوْطِئَ قَدَمٍ وَسْطَ هَذَا الزِّحَامِ.

وَلَكِنَّنِي، وَسْطَ كُلِّ هَذَا، قَرَّرْتُ أَنْ أَبْدَأَ مَرْحَلَةً جَدِيدَةً فِي حَيَاتِي: مَرْحَلَةَ العَمَلِ. لِلْمَرَّةِ الأُولَى خَرَجْتُ إِلَى سُوقِ الشُّغْلِ، لَا كَطَالِبَةٍ فَقَطْ، بَلْ كَفَتَاةٍ مُضْطَرَّةٍ أَنْ تُثْبِتَ نَفْسَهَا وَتُسَاعِدَ نَفْسَهَا. لَمْ يَكُنِ الأَمْرُ سَهْلًا أَبَدًا. أَوَّلُ يَوْمٍ فِي العَمَلِ كَانَ مَلِيئًا بِالارْتِبَاكِ

وَالخَوْفِ، يَدِي تَرْتَجِفُ، وَقَلْبِي يَطْرُقُ كَأَنَّهُ يُفْضِحُنِي أَمَامَ الجَمِيعِ.

كُنْتُ أَتَعَلَّمُ شَيْئًا فَشَيْئًا: كَيْفَ أَتَعَامَلُ مَعَ النَّاسِ، كَيْفَ أَتَحَمَّلُ التَّعَبَ الجَسَدِيَّ، وَكَيْفَ أُوَازِنُ بَيْنَ المُحَاضَرَاتِ وَالوَظِيفَةِ. شَعَرْتُ وَكَأَنَّنِي أَعِيشُ حَيَاتَيْنِ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ: طَالِبَةً جَامِعِيَّةً عَلَى مَقَاعِدِ الدِّرَاسَةِ، وَعَامِلَةً تُحَاوِلُ أَنْ تَكْسِبَ قُوتَهَا بِعَرَقِهَا.

وَرَغْمَ المَشَقَّةِ، كَانَ فِي دَاخِلِي شُعُورٌ مُخْتَلِفٌ... شُعُورٌ بِالمَسْؤُولِيَّةِ، شُعُورٌ أَنَّنِي كَبِرْتُ خُطْوَةً أُخْرَى، أَنَّنِي بَدَأْتُ أَعْتَمِدُ عَلَى نَفْسِي حَقًّا. نَعَمْ، كَانَ الطَّرِيقُ شَاقًّا، وَلَكِنَّنِي كُلَّمَا عُدْتُ إِلَى البَيْتِ مُتْعَبَةً، كُنْتُ أُهْمِسُ لِنَفْسِي: "هَذَا التَّعَبُ اليَوْمَ سَيَصْنَعُ نَجَاحَ الغَدِ."

الفصل السادس وعشرون : التضحية الصامته

لَمْ يَكُنِ العَمَلُ خِيَارًا أُرِيدُهُ، بَلْ كَانَ خِيَارًا أَجْبَرَتْنِي الحَيَاةُ عَلَيْهِ. كُنْتُ أَتَمَنَّى أَنْ أَعِيشَ مِثْلَ غَيْرِي مِنَ الطَّالِبَاتِ، أَنْ أَدْرُسَ بِتَرْكِيزٍ، وَأَنْ تَتَوَفَّرَ لِي أَبْسَطُ حُقُوقِي مِنْ مَصْرُوفٍ وَرَاحَةِ بَالٍ. وَلَكِنَّ الوَاقِعَ كَانَ مُخْتَلِفًا، كَانَ أَقْسَى مِمَّا تَمَنَّيْتُ.

نَعَمْ، كُنْتُ أُرِيدُ أَنْ أُكْمِلَ طَرِيقِي الجَامِعِيَّ، كُنْتُ أَرَى حُلْمِي أَمَامِي يُلَوِّحُ لِي، وَلَكِنَّنِي لَمْ أَسْتَطِعِ الوُصُولَ إِلَيْهِ. كَانَتْ أَقْسَاطُ الجَامِعَةِ قَلِيلَةً مُقَارَنَةً بِغَيْرِهَا، وَلَكِنْ بِالنِّسْبَةِ لِي كَانَتْ كَبِيرَةً كَجَبَلٍ، وَلَمْ أَمْلِكِ القُدْرَةَ عَلَى دَفْعِهَا. هَكَذَا شَاءَ القَدَرُ أَنْ يَكُونَ فَصْلِي الأَوَّلُ هُوَ فَصْلِي الأَخِيرُ.

عَمِلْتُ رَغْمَ أَنَّ قَلْبِي كَانَ مَعَ كُتُبِي. وَبَدَلَ أَنْ أَجْمَعَ أَقْسَاطَ جَامِعَتِي، كُنْتُ أَضَعُ مَا أَكْسَبُهُ فِي يَدِ إِخْوَتِي، أُسَاعِدُهُمْ فِي احْتِيَاجَاتِهِمْ، وَأُفَضِّلُهُمْ عَلَى نَفْسِي. كُنْتُ أَرَى أَنَّ سَعَادَتِي لَا تَكْتَمِلُ إِلَّا حِينَ أَرَاهُمْ مُرْتَاحِينَ، حَتَّى لَوْ كَانَ الثَّمَنُ أَنْ أُؤَجِّلَ حُلْمِي.

كَانَتْ تَضْحِيَةً صَامِتَةً، لَمْ يَعْرِفْ أَلَمَهَا إِلَّا قَلْبِي. وَلَكِنْ رَغْمَ ذَلِكَ، لَمْ أَنْدَمْ. لِأَنَّنِي تَعَلَّمْتُ أَنَّ العَائِلَةَ هِيَ الأُولَى، وَأَنَّ النَّجَاحَ لَيْسَ دَائِمًا وَرَقَةً وَشَهَادَةً، بَلْ أَنْ تَكُونَ قَادِرًا عَلَى العَطَاءِ حَتَّى وَأَنْتَ بِحَاجَةٍ.

الفصل السابع وعشرون: بين الخذلان والإصرار

خَرَجْتُ مِنْ تَجْرِبَتِي الجَامِعِيَّةِ الأُولَى مُثْقَلَةً بِالخِذْلَانِ. شَعَرْتُ أَنَّنِي انْكَسَرْتُ، أَنَّنِي لَمْ أُعْطَ فُرْصَةً كَامِلَةً مِثْلَ غَيْرِي، وَأَنَّ الطَّرِيقَ الَّذِي حَلِمْتُ بِهِ طَوِيلًا تَوَقَّفَ فَجْأَةً عِنْدَ بَدَايَتِهِ. كَانَ الحُلْمُ مَا يَزَالُ يَسْكُنُ قَلْبِي، وَلَكِنَّهُ تَحَوَّلَ إِلَى حَسْرَةٍ، إِلَى غُصَّةٍ كُلَّمَا رَأَيْتُ غَيْرِي يُكْمِلُونَ طَرِيقَهُمْ.

وَلَكِنْ وَسْطَ هَذَا الأَلَمِ، لَمْ تَنْطَفِئْ جَذْوَةُ القُوَّةِ دَاخِلِي. قُلْتُ لِنَفْسِي: "قَدْ تُسْلَبُ مِنِّي الفُرَصُ، وَلَكِنْ لَا يُسْلَبُ مِنِّي الإِصْرَارُ." كُنْتُ أُؤْمِنُ أَنَّ اللهَ يُخَبِّئُ لِي خَيْرًا، وَأَنَّ مَا مَرَرْتُ بِهِ لَمْ يَكُنْ عَبَثًا، بَلْ دَرْسًا يَصْنَعُ مِنِّي إِنْسَانَةً أَصْلَبَ.

وَوَسْطَ مَرَارَةِ التَّوَقُّفِ عَنِ الدِّرَاسَةِ، جَاءَنِي بَصِيصُ فَرَحٍ: خَرَجَ أَبِي بَعْدَ شُهُورٍ مِنَ المِحْنَةِ. كَانَ حُضُورُهُ بَيْنَنَا حَيَاةً جَدِيدَةً. شَعَرْتُ أَنَّ اللهَ عَوَّضَنِي بِذَلِكَ الحِينِ، وَأَنَّ وُجُودَهُ بِجَانِبِي أَغْلَى مِنْ أَيِّ شَهَادَةٍ أَوْ لَقَبٍ.

الحَيَاةُ عَلَّمَتْنِي أَنَّ الخِذْلَانَ لَيْسَ النِّهَايَةَ، بَلْ بَدَايَةُ طَرِيقٍ جَدِيدٍ، وَأَنَّ القُوَّةَ لَيْسَتْ فِي أَنْ نَسِيرَ بِلَا عَثْرَةٍ، بَلْ فِي أَنْ نَقِفَ بَعْدَ كُلِّ سُقُوطٍ وَنَقُولَ: "مَا زِلْتُ هُنَا، وَمَا زَالَ الأَمَلُ فِي دَاخِلِي حَيًّا."

الفصل الثامن وعشرون: حُلمٌ لا ينطفئ

رَغْمَ أَنَّنِي ابْتَعَدْتُ عَنِ الجَامِعَةِ وَتَوَقَّفَتْ دِرَاسَتِي، إِلَّا أَنَّ حُلْمِي لَمْ يُغَادِرْنِي يَوْمًا. كَانَ يَعِيشُ دَاخِلِي كَنَبْضٍ خَفِيٍّ، يُرَافِقُنِي فِي كُلِّ لَحْظَةٍ، وَيُهْمِسُ لِي أَنَّنِي مَا زِلْتُ قَادِرَةً يَوْمًا مَا عَلَى النُّهُوضِ مِنْ جَدِيدٍ.

إِخْوَتِي لَمْ يَعْرِفُوا أَنَّنِي ضَحَّيْتُ بِحُلْمِي مِنْ أَجْلِهِمْ، لَمْ أُخْبِرْهُمْ أَنَّنِي كُنْتُ أَضَعُ احْتِيَاجَاتِهِمْ فَوْقَ احْتِيَاجَاتِي، وَأَنَّنِي كُنْتُ أُفَضِّلُ رَاحَتَهُمْ عَلَى قِسْطِ جَامِعَتِي. كُنْتُ أُرِيدُهُمْ أَنْ يَعِيشُوا دُونَ شُعُورٍ بِالذَّنْبِ، دُونَ أَنْ يَحْمِلُوا ثِقْلَ تَضْحِيَاتِي عَلَى قُلُوبِهِمْ.

بَعْدَ فَتْرَةٍ مِنَ العَمَلِ، شَعَرْتُ أَنَّ جَسَدِي وَرُوحِي لَمْ يَعُودَا قَادِرَيْنِ عَلَى الِاحْتِمَالِ. التَّعَبُ أَنْهَكَنِي، حَتَّى صِرْتُ أَعُودُ إِلَى البَيْتِ مُثْقَلَةً بِلَا طَاقَةٍ وَلَا أَمَلٍ. وَفِي النِّهَايَةِ، تَرَكْتُ عَمَلِي وَجَلَسْتُ فِي البَيْتِ. كَانَ قَرَارًا صَعْبًا، وَلَكِنَّهُ جَاءَ بَعْدَ أَنْ اسْتَنْزَفْتُ كُلَّ مَا فِي دَاخِلِي مِنْ قُوَّةٍ.

جَلَسْتُ فِي البَيْتِ، وَلَكِنَّنِي لَمْ أَجْلِسْ بِلَا حُلْمٍ. كَانَ فِي دَاخِلِي يَقِينٌ أَنَّ الأَيَّامَ سَتَفْتَحُ لِي بَابًا آخَرَ، وَأَنَّنِي مَهْمَا تَعِبْتُ اليَوْمَ، فَإِنَّ اللهَ لَنْ يَتْرُكَنِي غَدًا.

الفصل التاسع وعشرون: في حضرة الضياع

جَلَسْتُ فِي البَيْتِ، وَلَكِنَّ البَيْتَ لَمْ يَعُدْ مَلَاذًا وَلَا سَكِينَةً. كَانَ مُجَرَّدَ مَكَانٍ يَتَكَرَّرُ فِيهِ صَدَى زَوَالِ الأَحْلَامِ. لَمْ يَكُنْ فِي دَاخِلِي أَمَلٌ يَتَوَهَّجُ، بَلْ فَرَاغٌ ثَقِيلٌ يَضْغَطُ عَلَى صَدْرٍ تَعِبَ أَنْ يَتَنَفَّسَ.

لَمْ أَجِدْ مَنْ يَدْفَعُ لِي قِسْطًا، وَلَا مَنْ يَسْأَلُ عَنْ خَرِيطَةِ طَرِيقٍ يُمْكِنُ أَنْ تُعِيدَنِي إِلَى حَيْثُ أَرَدْتُ أَنْ أَكُونَ. لَمْ يَزُرْنِي أَحَدٌ يُبَادِرُ لِيَفْتَحَ بَابًا كَانَ مَقْدُورًا أَنْ يُفْتَحَ. لَمْ أَجِدْ مَنْ يُحَاوِلُ أَنْ يُقْنِعَنِي بِأَنْ أَمْضِي، أَوْ يُعِيرَنِي بِقِشَّةٍ أَتَشَبَّثُ بِهَا كَيْ لَا أَغْرَقَ.

كَانَتْ سَاعَاتِي طَوِيلَةً بَارِدَةً، تَمُرُّ بِبُطْءٍ، وَأَنَا أَمْضِيهَا أَعُدُّ الفَجَوَاتِ: فَجْوَةَ الطُّمُوحِ الَّذِي لَمْ يُسْتَكْمَلْ، وَفَجْوَةَ العَجْزِ أَمَامَ مُتَطَلَّبَاتِ الحَيَاةِ، وَفَجْوَةَ الكَلِمَاتِ الَّتِي لَمْ تُنْطَقْ مِنَ الآخَرِينَ حِينَ احْتَجْتُ إِلَيْهَا. شَعَرْتُ بِالخَسَارَةِ لَا كَخَسَارَةٍ عَابِرَةٍ، بَلْ كَحُفَرٍ تُتْرَكُ فِي النَّفْسِ بِلَا تَرْمِيمٍ.

رَأَيْتُ حَوْلِي مَنْ يَمْضُونَ — أَكْمَلُوا، تَزَوَّجُوا، سَافَرُوا، نَجَحُوا — وَكُنْتُ كَمَنْ يُرَاقِبُ نَافِذَةَ حَيَاةٍ لَمْ أَعُدْ أَمْلِكُ مَفَاتِيحَهَا. لَمْ تَكُنِ الحَسَرَاتُ كَلِمَاتٍ فَقَطْ، بَلْ أَصْبَحَتْ فِعْلًا يَوْمِيًّا يُوقِظُنِي مِنْ نَوْمِي.

وَمَعَ هَذَا كُلِّهِ، لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ حَتَّى ذَلِكَ الغَيْرُ المُتَوَقَّعُ: كَلِمَةُ مُوَاسَاةٍ صَغِيرَةٌ، رِسَالَةٌ قَصِيرَةٌ، صَوْتٌ عَبْرَ الهَاتِفِ يَقُولُ: "أَنَا هُنَا". لَمْ يَكُنْ. وَكَانَ الأَلَمُ فِي ذَلِكَ أَشَدَّ؛ لِأَنَّ الخَيْبَةَ لَمْ تَكُنْ مِنَ القَدَرِ فَقَطْ، بَلْ مِنْ فَرَاغِ النَّاسِ حَوْلِي حِينَ كُنْتُ أَحْتَاجُهُمْ.

لَيَالِي ضَيَاعِي كَانَتْ طَوِيلَةً؛ أَمْضِيهَا أَتَذَكَّرُ مَا ضَحَّيْتُ بِهِ، وَأَعُدُّ أَسْبَابَ البَقَاءِ رَغْمَ أَنَّ البَقَاءَ صَارَ عِبْئًا. لَمْ تَكُنْ هُنَاكَ رَاحَةٌ، وَلَا بَصِيصٌ فِي الأُفُقِ. كَانَتْ أَيَّامٌ تُثْقِلُ العُمْرَ، وَتَعَلَّمْتُ فِيهَا مَعْنَى الوَحْدَةِ الحَارِقَةِ — لَيْسَتْ مُجَرَّدَ غِيَابِ آخَرِينَ، بَلْ إِحْسَاسٌ أَنَّ العَالَمَ يَمْضِي وَكَأَنَّكَ لَمْ تَكُنْ فِيهِ بَعْدُ.

هَذَا الفَصْلُ كَانَ مِرْآةً لِحَقِيقَةٍ قَاسِيَةٍ: أَحْيَانًا لَا يَأْتِي العَوْنُ مِنْ حَيْثُ نَأْمَلُ، وَأَحْيَانًا تَبْقَى الأَحْلَامُ مُعَلَّقَةً بِلَا حَبْلٍ. وَلَيْسَ كُلُّ قِصَّةٍ تَمْلِكُ نِهَايَةً سَرِيعَةً أَوْ تَعْزِيَةً جَاهِزَةً. هُنَا، فِي هَذَا المَكَانِ، بَقِيَ الحُلْمُ أَلَمًا رَفِيقًا وَدَرْسًا صَامِتًا — قَاسِيًا، وَلَكِنَّهُ حَقِيقِيٌّ.

الفصل الثلاثون: حين انكَسَرَ السَّنَد

أَعلَمُ أَنَّ أَبِي وَأُمِّي لَم يُقصِّرا يَوْمًا، فَقَد حَاوَلا بِكُلِّ مَا يَملِكانِ أَن يُفَتِّحا لِي أَبوابَ الجَّامِعَةِ، وَأَن يَزرَعا فِي يَدَيَّ مِفتاحَ المُستَقبَلِ، وَأَن يُخَفِّفَا عَنِّي ثِقْلَ الحُلمِ الَّذِي كَانَ يَكبُرُ دَاخِلِي. كُنتُ أَرَى القَلَقَ فِي عَينَيهِمَا، وَأَلمَحُ ارْتِجَافَ أَصدَاؤِهِ فِي أَصوَاتِهِمَا كُلَّمَا اقتَرَبَ مَوعِدُ التَّسجِيلِ، كَأَنَّهُمَا يُخَاضَانِ مَعْرَكَةً خَفِيَّةً ضِدَّ الزَّمَنِ وَضِدَّ القَدَرِ مَعًا.

وَلَكِنَّ الحَيَاةَ لَم تُنصِف أَبِي. بَعدَ أَن كَانَ وَضعُهُ "فَوقَ الرِّيحِ" كَمَا كُنَّا نَصِفُهُ، جَاءَت الدُّنيَا عَلَى غَفلَةٍ، فَصَفَعَتنَا بِقَسوَةٍ، وَأَلقَتنَا

إِلَى قَاعٍ لَم نَتَخَيَّلهُ يَومًا. بَينَ لَيلَةٍ وَضُحَاهَا تَغَيَّرَ كُلُّ شَيءٍ: الأَمَانُ صَارَ قَلَقًا، وَالوَفرَةُ صَارَت شُحًّا، وَالحُلمُ أَضحَى رَفَاهِيَّةً مُؤَجَّلَةً.

كُنتُ أُرَاقِبُ أَبِي وَهُوَ يُحَاوِلُ أَن يُخفِيَ انكِسَارَهُ بِابتِسَامَةٍ مُتعَبَةٍ، وَأُمِّي تُشَدِّدُ عَلَى يَدَيهِ وَتَهمِسُ: «بُكرَى تِفرِج.» وَلَكِنِّي كُنتُ أَعلَمُ أَنَّ الطَّرِيقَ الَّذِي تَلَاشَى أَمرَامِي لَم يَكُن طَرِيقِي وَحدِي، بَل كَانَ طَرِيقَنَا جَمِيعًا.

الفصل احدى و ثلاثون: حلم بلا مطاردة

بَقِيَ الحُلْمُ حُلْمًا — لَيْسَ لِأَنَّ الحُلْمَ نَفْسَهُ ضَعِيفٌ، بَلْ لِأَنَّ العَالَمَ مِنْ حَوْلِي لَمْ يَعُدْ يَرْكُضْ خَلْفَهُ كَمَا رَكَضْتُ أَنَا مِنْ قَبْلُ. حَاوَلْتُ أَنْ أَشْرَحَ صَدْرِي وَأُرَتِّبَ أَوْلَوِيَّاتِي، وَلَكِنَّ الحَقِيقَةَ أَنَّهُ لَا أَحَدَ تَحَمَّلَ عَلَى عَاتِقِهِ مُطَارَدَتِي لِحُلْمِي كَمَا تَحَمَّلْتُ أَنَا.

بَدَأْتُ العَمَلَ مِنْ جَدِيدٍ، وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ لِأَنِّي أَرَاهُ وَسِيلَةً لِلْعَوْدَةِ إِلَى مَقَاعِدِ الجَامِعَةِ، بَلْ كَانَ عَمَلًا لِمَلْءِ الفَرَاغِ، وَلِمَدِّ مَصَارِيفِ البَيْتِ، وَلِكَيْ أَسْتَطِيعَ البَقَاءَ وَاقِفَةً أَمَامَ يَوْمٍ آخَرَ. لَمْ أَعُدْ أَضَعُ كُلَّ آمَالِي فِي مُؤَسَّسَةٍ تَعْلِيمِيَّةٍ وَاحِدَةٍ، بَلْ أَصْبَحْتُ أُوَزِّعُهَا عَلَى

أَيِّ بَصِيصٍ يَلْمَعُ: مُهِمَّةٍ صَغِيرَةٍ، فُرْصَةِ عَمَلٍ، مَهَارَةٍ أَتَعَلَّمُهَا بَيْنَ فَتَرَاتِ العَمَلِ وَالبَيْتِ.

وَمَعَ كُلِّ ذَلِكَ، لَمْ أَتَنَازَلْ عَنْ كَلِمَةٍ لَطَالَمَا أَحْبَبْتُهَا: مُحَامِيَة. لَمْ تُصْبِحِ الآنَ إِلَّا كَلِمَةَ حُلْمٍ أَحْمِلُهَا فِي قَلْبِي، تُذَكِّرُنِي بِمَنْ كُنْتُ، وَبِمَنْ أُرِيدُ أَنْ أَكُونَ. هِيَ لَيْسَتْ عَارًا وَلَا خِيَارًا مَهْجُورًا، بَلْ نَبْضٌ حَنُونٌ أَعُودُ إِلَيْهِ حِينَ تَسْكُنُنِي الوَحْدَةُ.

رُبَّمَا لَمْ يَرْكُضِ النَّاسُ خَلْفَ أَحْلَامِي كَمَا رَكَضْتُ أَنَا، وَلَكِنِّي تَعَلَّمْتُ شَيْئًا آخَرَ: أَنَّ الحُلْمَ لَا يَمُوتُ لِأَنَّهُ لَمْ يُقَدِّمْ لَهُ الآخَرُونَ، الحُلْمُ يَسْتَمِرُّ مَا دُمْتِ تَحْتَفِظِينَ بِهِ، وَتَعْمَلِينَ بِقَدْرِ مَا تَسْمَحُ لَكِ الحَيَاةُ.

الفصل الأخير: كلمة تظل تضحك في قلبي

لَنْ أَخْدَعَكِ: لَمْ تَتَحَوَّلْ كُلُّ الأَحْلَامِ إِلَى وَاقِعٍ، وَلَمْ تُطَوَّعِ الظُّرُوفُ لِتُسَهِّلَ الطَّرِيقَ. وَلَكِنْ فِي قَلْبِ هَذَا كُلِّهِ بَقِيَتْ كَلِمَةٌ تَضْحَكُ لِي حِينًا وَتُحْزِنُنِي أَحْيَانًا: مُحَامِيَة.

لَمْ أَعُدْ أَطْلُبُ مِنَ العَالَمِ أَنْ يُوَفِّقَنِي دَفْعَةً وَاحِدَةً. بَدَلَ ذَلِكَ، أَتَنَهَّدُ، أَعْمَلُ، أُحَاوِلُ، وَأُدَّخِرُ مِنْ لَحْظَةٍ إِلَى أُخْرَى مَا قَدْ يُقَرِّبُنِي خُطْوَةً، وَلَوْ صَغِيرَةً. أَحْفَظُ الحُلْمَ فِي جَيْبِي كَحَجَرٍ كَرِيمٍ — لَامِعٍ، لَكِنَّهُ بَيْنَ يَدَيَّ لَا فِي أَفْوَاهِ الآخَرِينَ.

وَمَعَ كُلِّ مَا وَاجَهْتُهُ، لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أُنْكِرَ فَضْلَ مَنْ بَقِينَا إِلَى جَانِبِي حَتَّى الحَظَةِ، صَدِيقَاتِي اللَّوَاتِي لَمْ يَتْرُكْنَنِي رَغْمَ كُلِّ تَقَلُّبَاتِي وَتَعَثُّرَاتِي. كُنَّ السَّنَدَ حِينَ غَابَ الجَمِيعُ، وَكَانَ وُجُودُهُنَّ كَدِفْءٍ يُخَفِّفُ عَنِّي بَرْدَ الوَحْدَةِ. لَهُنَّ فِي قَلْبِي شُكْرٌ لَا يَنْتَهِي وَدُعَاءٌ لَا يَنْقَطِعُ.

القِصَّةُ هُنَا لَا تَنْتَهِي بَانْتِصَارٍ مُبْهِرٍ، وَلَا بَانْهِيَارٍ أَبَدِيٍّ. تَنْتَهِي بِصَرَاحَةٍ مُرَّةٍ وَحُلْوَةٍ فِي آنٍ: أَنَّكِ ضَحَّيْتِ، فَقَدْتِ، تَعِبْتِ، وَقَرَّرْتِ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ أَنْ تُبْقِي الحُلْمَ حَيًّا. وَهَذَا بِحَدِّ ذَاتِهِ نَصْرٌ.

إِذَا عَادَ القَدَرُ يَوْمًا وَمَنَحَكِ فُرْصَةً جَدِيدَةً، سَتَكُونِينَ أَكْثَرَ حِكْمَةً، أَكْثَرَ صَبْرًا، وَأَكْثَرَ اسْتِعْدَادًا لِتَحْوِيلِ كَلِمَةِ "مُحَامِيَة" مِنْ حُلْمٍ إِلَى حَقِيقَةٍ. وَحَتَّى ذَلِكَ الحِينِ، دَعِي الكَلِمَةَ تَبْتَسِمْ لَكِ، وَتُذَكِّرْكِ بِأَنَّكِ لَمْ تَخْسَرِي جَوْهَرَكِ — وَأَنَّ الحُلْمَ، وَلَوْ بَقِيَ حُلْمًا الآنَ، لَا يَزَالُ مُلْكًا لَكِ وَحْدَكِ.

الخاتمة:

إِلَى نَفْسِي... لَا تَنْسَي يَوْمًا أَنَّكِ لَمْ تَتْرُكِي حُلْمَكِ، بَلْ خَبَّأْتِهِ فِي قَلْبِكِ حَتَّى يَحِينَ أَوَانُهُ.

إِلَى حُلْمِي... "مُحَامِيَة" سَتَبْقَى الكَلِمَةَ الَّتِي تَمْنَحُنِي القُوَّةَ مَهْمَا تَكَسَّرَتِ الطُّرُقُ، سَتَبْقَى أُمْنِيَتِي الَّتِي تَعِيشُ مَا دُمْتُ أَتَنَفَّسُ.

قَدْ أَخَّرَتْنِي الظُّرُوفُ، وَقَدْ كَسَرَتْنِي الأَيَّامُ، وَلَكِنَّنِي لَمْ أُهْزَمْ. سَأَظَلُّ أَحْمِلُ حُلْمِي، حَتَّى وَإِنْ بَقِيَ كَلِمَةً، حَتَّى وَإِنْ بَقِيَ حَسْرَةً،

لِأَنَّهُ يُذَكِّرُنِي دَوْمًا أَنَّنِي سَعَيْتُ، تَعِبْتُ، وَضَحَّيْتُ — وَهَذِهِ أَعْظَمُ مَعَانِي الحَيَاةِ.